في ظلال القرآن

الجزء الثالث والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الثالث والعشرون

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



من سورة يس والصافات وص



سورة يس مكية

وآياتها ٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« يٰسٓ * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَانَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ .

«وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ ٱلرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا : رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ * قَالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ .

« وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ، قَالَ : يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا

مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ؟ إِنِّى إِذًا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ .

قِيلَ : ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ . قَالَ : يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ .

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ » .

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين ، بينما هى أصغر وأقصر من سابقتها ــ سورة فاطر ــ وعدد آياتها خمس وأربعون .

وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ماتحمله معها من الصور والظلال التى تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهى متنوعة وموحية وعميقة الآثار .

والموضوعات الرئيسية للسورة هى موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة . فهى تتعرض لطبيعة الوحى وصدق الرسالة منذ افتتاحها : « يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . . » . وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ؛ وتعرض هذه العاقبة فى القصة على طريقة القرآن فى استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته : « وما علمناه الشعر ــ وماينبغى له ــ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » . .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجىء استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن الذى جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه فى شأن المرسلين وهو يقول : « ومالى

لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين » . . وقرب ختام السورة يجيء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى : « واتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » . .

والقضية التى يشتد عليها التركيز فى السورة هى قضية البعث والنشور ، وهى تتردد فى مواضع كثيرة فى السورة . تجيء فى أولها : « إنا نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين » . . وتأتى فى قصة أصحاب القرية ، فيما وقع للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل فى السياق : « قيل : ادخل الجنة . قال : ياليت قومى يعلمون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرمين » . . ثم ترد فى وسط السورة : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفى نهاية السورة ترد هذه القضية فى صورة حوار : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر فى السور المكية . ولكنها تعرض فى كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها .

هذه المؤثرات منتزعة فى هذه السورة من مشاهد القيامة — بصفة خاصة — ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجرى لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج فى منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التى يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنسانى وتوقظه : منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر : « إنا جعلنا

فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ؛ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون » . ومنها صورة نفوسهم فى سرهم وفى علانيتهم مكشوفة لعلم الله لايداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لاتزيد : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . . وكلها مؤثرات تمس القلب البشرى وهو يرى مصداقها فى واقع الوجود .

* * *

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين : « يا . سين » وبالقرآن الحكيم ، على رسالة النبى — صلى الله عليه وسلم — وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهى حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلا ، وأن يحال بينهم وبينها أبدا. وبيان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب ؛ فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية ، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان فى قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بنداء الحسرة على العباد الذين مايفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات الله فى الكون وهى كثير . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التى سبقت الإشارة إليها فى تقديم السورة ، كما يعرض مشهداً مطولا من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفى فى أوله أن ماجاء به محمد — صلى الله عليه وسلم — شعر ، وينفى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ! . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كتلك النشأة ولاغرابة ! ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكمن فيه النار وهما فى الظاهر بعيد من بعيد ! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة . . وأخيراً يجىء

الإيقاع الأخير فى السورة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

والآن نأخذ بعد هذا العرض المجمل فى التفصيل . .

***

« يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون . إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشى الرحمان بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . .

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين : « يا . سين » كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذى اخترناه فى تفسير هذه الأحرف فى أوائل السور ؛ والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله ، الآية التى لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ؛ ولكن نسقه التفكيرى والتعبيرى فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف .

ويصف القرآن ــ وهو يقسم به ــ بأنه « القرآن الحكيم » . والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهى من مقتضيات أن يكون حكيما . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحا ! وإن له لصفات الحى الذى يعاطفك وتعاطفه حين تصفى له قلبك وتصغى له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ؛ ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت للسيرة الحبيب !

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل فى طوقه . ويضرب على الوتر الحساس فى قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التى تصلحه وتوجهه .

والقرآن حكيم . يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاما كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .

يقسم الله سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم :

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » . .

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم . ولكن هذا القسم منه — جل جلاله — بالقرآن وحروفه ، يخلع على القسم به عظمة وجلالا ، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين !

« إنك لمن المرسلين » . . والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة . فليس هو الذي يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم — ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين — ترفعا بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول .

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » . .

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص .

وهي لاستقامتها — بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تعقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية . وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صوره ، وأعراها عن الشوائب والأخلاط ؛ وأغناها عن الشرح ، وتفصيص العبارات وتوليد الكليات ، والدخول بالمعاني في الدروب والمنحنيات ! يمكن أن يعيش بها ومعها البادي والحاضر ، والأمي والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ؛ ويجد فيها كل حاجته ؛ ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين .

وهى مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان ، فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصدمها . إنما هى مستقيمة على نهجها ، متناسقة معها ، متعاونة كذلك مع سائر القوانين التى تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه .

وهى من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله ، واصلة إليه موصلة به ، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتوى عن الطريق إليه . فهو سالك دربا مستقيما واصلا ينتهى به إلى رضوان الخالق العظيم .

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم . وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة فى تصويره للحق ، وفى التوجيه إليه ، وفى أحكامه الفاصلة فى القيم ، ووضع كل قيمة فى موضعها الدقيق .

« تنزيل العزيز الرحيم » . .

يعرّف الله عباده بنفسه فى مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزّل إليهم . فهو العزيز القوى الذى يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذى يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل .

فأما حكمة هذا التنزيل فهى الإنذار والتبليغ :

« لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » . .

والغفلة أشد ما يفسد القلوب . فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته . معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة . تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها . ودون أن ينبض أو يستقبل . ومن ثم كان الإنذار هو أليق شىء بالغفلة التى كان فيها القوم ، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر ، أو ينبههم منبه . فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رسول . فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين فى الغفلة ، الذين لم يأتهم ولم يأت آباءهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ؛ وعما نزل بهم من قدر الله ، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم . ما كان منه وما سيكون :

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » . .

لقد قضى فى أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم. فهم لايؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها .

وهنا يرسم مشهداً حسيا لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسرا عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون :

« إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ، فهى إلى الأذقان ، فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا . فأغشيناهم فهم لا يبصرون » . .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يملكون حرية النظر والرؤية وهم فى هذا المشهد العنيف ! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ؛ فلو أرخى الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسى وشدته فإن الإنسان ليلتقى بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلا عنيفا كهذا بينهم وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال فى الأيدى ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك . . مشدودة عن الهدى قسراً وملفوتة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك . وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود . وهو يصدع بالحجة ، ويدلى بالبرهان . وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتماسك لها إنسان .

« وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . .

فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التى لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلبا غير مهيأ للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود . فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى :

« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم » . .

والذكر يراد به هنا القرآن — على الأرجح — والذى اتبع القرآن ، وخشى الرحمان دون أن يراه ، هو الذى ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحده الذى وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول — صلى الله عليه وسلم — قد خصه به ، وإن كان قد عمم . إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ، فانحصر فى من اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار : « فبشره بمغفرة وأجر كريم » . . المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر . والأجر الكريم على خشية الرحمان بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمان من الذكر . وهما متلازمان فى القلب . فما تحل خشية الله فى قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذى أراد .

وهنا يؤكد وقوع البعث ؛ ودقة الحساب ، الذى لايفوته شىء :

« إنا نحن نحي الموتى ، ونكتب ماقدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين » . .

وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التى استغرقت جدلا طويلا . وسيرد منه فى هذه السورة أمثلة منوعة . وهو ينذرهم أن كل ماقدمت أيديهم من عمل ، وكل ماخلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شىء ولاينسى . والله سبحانه هو الذى يحي الموتى ، وهو الذى يكتب ماقدموا وآثارهم ، وهو الذى يحصى كل شىء ويثبته . فلابد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الذى يليق بكل ماتتولاه يد الله .

والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلى القديم وهو بكل شىء محيط .

* * *

وبعد عرض قضية الوحى والرسالة ، وقضية البعث والحساب ، فى هذه الصورة التقريرية ، يعود السياق ليعرضهما فى صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب والإيمان وعواقبهما معروضة كالعيان :

« واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون . قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمان من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ

المبين . قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا : طائركم معكم ، أإن ذكرتم ؟ بل أنتم قوم مسرفون » ..

ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هى القرية . وقد اختلفت فيها الروايات . ولا طائل وراء الجرى مع هذه الروايات .

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لايزيد شيئاً فى دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها . فهى قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون — عليهما السلام — إلى فرعون وملئه . فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززها الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله . وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد « قالوا : إنا إليكم مرسلون » . .

هنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة فى تاريخ الرسل والرسالات . .

« قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا » . . « وما أنزل الرحمان من شىء » . . « إن أنتم إلا تكذبون » . .

وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض فى شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لاتحيط به الأوهام والأساطير ؟ ! كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟ ! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التى تمتلىء بها الأسواق والبيوت ؟ !

وهذه هى سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة. وليست فى هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلا ضخماً ، ولكنه يتمثل فى الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدنى الذى يتلقى به وحى السماء ، حين يختاره الله لتلقى هذا الوحى العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكا كما كانوا يقترحون !

والرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية . وحياة الرسول هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى . النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلابد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه .

ومن ثم كانت حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ معروضة لأنظار أمته . وسجل القرآن ـ كتاب الله الثابت ـ المعالم الرئيسية فى هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه سجلها القرآن فى بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان .

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هى التى ظلت موضع الاعتراض من بنى الإنسان !

ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » . . وقصدوا أنكم لستم برسل . . « وما أنزل الرحمان من شىء » . . مما تدعون أنه نزله عليكم من الوحى والأمر بأن تدعونا إليه . « إن أنتم إلا تكذبون » . . وتدعون أنكم مرسلون !

وفى ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل :

« قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين » . .

إن الله يعلم . وهذا يكفى . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون فى تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله .

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ؛ ولا يطيقون وجود الدعاة إلى الهدى ؛ فتأخذهم العزة بالإثم ؛ ويعمدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف فى مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عربيد :

« قالوا : إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم » . .

قالوا : إننا نتشاءم منكم ؛ ونتوقع الشر فى دعوتكم ؛ فإن لم تنتهوا عنها فإننا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم فى دعوتكم : « لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم » . .

وهكذا أسفر الباطل عن غشمه ؛ وأطلق على الهداة تهديده ؛ وبغى فى وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد فى التعبير والتفكير !

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضى عليهم بالمضى فى الطريق :

« قالوا : طائركم معكم » . .

فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفى وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرا أو أن يجعلوه شرا . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هى الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات . . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !

وقالوا لهم : « أإن ذكرتم ؟ » . .

يعنى أترجموننا وتعذبوننا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟

« بل أنتم قوم مسرفون » . .

تتجاوزون الحدود فى التفكير والتقدير ؛ وتجاوزون على الموعظة بالتهديد والوعيد ؛ وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب !

* * *

تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل . وهى مثل للقلوب التى تحدثت عنها السورة فى الجولة الأولى ؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشرى المرسوم هناك .

فأما النموذج الآخر الذى اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب ، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة :

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ؛ قال : ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون » . .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . فيها الصدق . والبساطة . والحرارة . واستقامة الإدراك . وتلبية الإيقاع القوى للحق المبين .

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه فى مقالته لقومه . وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة فى ضميره فلم يطق

عليها سكوتا ؛ ولم يقبع فى داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ؛ ولكنه سعى بالحق الذى استقر فى ضميره وتحرك فى شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه فى دعوة قومه إلى الحق ، وفى كفهم عن البغى ، وفى مقاومة اعتدائهم الأثيم الذى يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن فى عزوة من قومه أو منعة من عشيرته . ولكنها العقيدة الحية فى ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها . .

« قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » .

إن الذى يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجراً ، ولا يبتغى مغنما . . إنه لصادق . وإلا فما الذى يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبى تكليفا من الله ؟ ما الذى يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجنى من ذلك كسبا ، ولا يطلب منهم أجرا ؟

« اتبعوا من لا يسألكم أجرا » . . « وهم مهتدون » . .

وهداهم واضح فى طبيعة دعوتهم . فهم يدعون إلى إله واحد . ويدعون إلى نهج واضح . ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض . فهم مهتدون إلى نهج سليم ، وإلى طريق مستقيم .

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التى استيقظت فيه فاقتنعت بالبرهان الفطرى السليم :

« ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ إنى إذاً لفى ضلال مبين » .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد . . « ومالى لا أعبد الذى فطرنى؟ » وما الذى يحيد بى عن هذا النهج الطبيعى الذى يخطر على النفس أول ما يخطر ؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذى فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها . ولا تلتوى إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها . والتوجه

إلى الخالق هو الأولى ،وهو الأول ، وهو المتجه الذى لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وانجذابها الفطرى . والرجل المؤمن يحس هذا فى قرارة نفسه ، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد !

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق فى النهاية . كما يرجع كل شىء إلى مصدره الأصيل . فيقول :

« وإليه ترجعون » . .

ويتساءل لم لا أعبد الذى فطرنى ، والذى إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه .

ثم يستعرض النهج الآخر المخالف للمنهج الفطرى المستقيم . فيراه ضلالا بينا : « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ؟ » . .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذى يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟

« إنى إذاً لفى ضلال مبين » . .

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير فى وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين . لأن صوت الفطرة فى قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب :

« إنى آمنت بربكم فاسمعون » . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحى إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لا يبالى بهم ما ذا يقولون !

***

ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه . وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وماهم فيه ؟ ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذى جهر بكلمة الحق ، متبعا صوت الفطرة ، وقذف بها فى وجوه من يملكون التهديد

والتنكيل . نراه فى العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد :

« قيل : ادخل الجنة . قال : ياليت قومى يعلمون. بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » . .

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء . وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغى إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين .

ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله فى الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضى النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين .

* * *

هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف :

« وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذاهم خامدون » . .

ولايطيل هنا فى وصف مصرع القوم ، تهويناً لشأنهم ، وتصغيراً لقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم . . ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل !

« يَاحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ؟ * وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

« وَآيَةٌ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ

أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ * سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .

« وَآيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَاهُمْ مُظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ، وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَاهُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ : ٱتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللهُ . قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ !

« وَيَقُولُونَ : مَتَى هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَاهُمْ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا : يَاوَيْلَنَا ! مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَانُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَالٍ عَلَى

ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَايَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ .

« وَامْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ *أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ * هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ * وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ » .

بعد الحديث فى الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ؛ والمثل الذى ضربه لهم فى قصة أصحاب القرية المكذبين ؛ وما انتهى إليه أمرهم « فإذا هم خامدون » . . . يبدأ الحديث فى هذا الدرس بالتعميم فى موقف المكذبين بكل ملة ودين ؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادى على العباد نداء الحسرة وهم لا يتعظون بمصارع الهالكين ، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » .

ثم يأخذ فى استعراض الآيات الكونية التى يمرون عليها معرضين غافلين ؛ وهى مبثوثة فى أنفسهم وفيما حولهم وفى تاريخهم القديم .. وهم مع هذا لا يشعرون ؛ وإذا ذكروا لا يذكرون: « وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » . . وهم يستعجلون بالعذاب غير مصدقين : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . .

وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولا من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

* * *

« ياحسرة على العباد ! مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟ وإن كل لما جميع لدنيا محضرون » . .

والحسرة انفعال نفسى على حال مؤسفة لايملك الإنسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه . والله سبحانه وتعالى ـ لايتحسر على العباد ؛ ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ! فهى حال بائسة مؤسفة تنتهى بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم !

ياحسرة على العباد تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لايتدبرونها ولاينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيئون الأدب مع الله : « وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » . .

« ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون » . .

ولقد كان فى هلاك الأولين الذاهبين لايرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون . . لقد كان فى هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لايتدبرون . وهم صائرون إلى ذات المصير . فأية حالة تدعو إلى الحسرة كهذا الحال الأسيف ؟ !

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ؛ ويحاول أن يتوقاه قدر مايستطيع . فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعا فى ذات الطريق ؟ والغرور يملى له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لايبصرون !

وإذا كان الهالكون الذاهبون لايرجعون إلى خلفائهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولامفلتين من حساب الله بعد حين . .

« وإن كل لما جميع لدنيا محضرون » . .

* * *

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأ كلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأ كلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » . .

إنهم يكذبون الرسل ، ولايتدبرون مصارع المكذبين ، ولايدركون دلالة كونهم يذهبون ولايرجعون . والرسل إنما يدعونهم إلى الله . وكل مافى الوجود حولهم يحدثهم عن الله ، ويدل عليه ويشهد بوجوده . وهذه هى الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لاحياة فيها ، ولاماء ينشىء الحياة ، ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب ، وتتفجر فيها العيون ، فتجرى بالحياة حيث تجرى .

والحياة معجزة لاتملك يد البشر أن تجريها ؛ إنما هى يد الله التى تجرى المعجزات ، وتبث روح الحياة فى الموات . وإن رؤية الزرع النامى ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة ، وهى تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضر العود المستشرف للشمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجنى والقطاف . . « ليأ كلوا من ثمره وماعملته أيديهم » . . ويد الله هي التى أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء ! « أفلا يشكرون ؟ ».

ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرقيقة ليسبح الله الذى أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجاً ذكرانا وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذى لايعلمه سواه :

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون » . .

وهذه التسبيحة تنطلق فى أوانها وفى موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هـذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق . . وحدة القاعدة والتكوين . . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرهما . . « مما لايعلمون » . وإن هذه الوحدة لتشى بوحدة اليد المبدعة . التى توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، فى هذه الأحياء التى لايعلم علمها إلا الله . . ومن يدرى فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد ! وقد أصبح معلوماً أن الذرة ــ أصغر ماعرف من قبل من أجزاء المادة ــ مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربى ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تتألف من نجمين مرتبطين

يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران فى مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة !

* * *

تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحياة . . ومنها إلى آية السماء ومايتعلق بها من ظواهر يراها العباد رأى العين ، ويد الله تجريها بالخوارق المعجزات :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهـار فإذاهم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . .

ومشهد قدوم الليـل ، والنور يختفى والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس فى كل بقعة فى خلال أربع وعشرين ساعة (فيما عدا بعض المواقع التى يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين فى الشمال والجنوب) وهو مع تـكراره اليومى عجيبة تدعو إلى التأمل والتفـكير .

والتعبير القرآنى عن هذه الظاهرة ـ فى هذا الموضع ـ تعبير فريد . فهو يصور النهار متلبساً بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذاهم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هـذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الـكروية فى دورتهـا حول نفسها فى مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منهـا النهار ولفها الظلام ـ وهكذا تتوالى هـذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الـكونية أدق تصوير .

« والشمس تجرى لمستقر لها » . .

والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنهـا ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول نفسها . ولـكن عرف أخيراً أنهـا ليست مستقرة فى مكانها . إنما هى تجرى . تجرى فعلا . تجرى فى اتجاه واحد فى الفضاء الـكونى الهـائل بسرعة حسبها الفلـكيون باثنى عشر ميلا فى الثانية ! والله ـ ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها ـ يقول : إنها تجرى لمستقر لها . هذا المستقر الذى ستنتهى إليه لايعلمه إلا هو سبحانه . ولايعلم موعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه

الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى فى الفضاء ، لا يسندها شىء ، ندرك طرفا من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم :

« ذلك تقدير العزيز العليم » . .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . .

والعباد يرون القمر فى منازله تلك . يولد هلالا . ثم ينمو ليلة بعد ليلةحتى يستدير بدرا . ثم يأخذ فى التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذى يكون فيه البلح من النخلة .

والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآنى العجيب : « حتى عاد كالعرجون القديم » . . وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . . ولكنه فى الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفى الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير فى الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة . والقلب البشرى الذى يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال ؛ المدبرة للأجرام بذلك النظام . سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم . فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفكير .

وأخيرا يقرر دقة النظام الكونى الذى يحكم هذه الأجرامالهائلة ، ويرتبالظواهرالناشئة عن نظامها الموحد الدقيق :

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » . .

ولكل نجم أو كوكبفلك ، أو مدار ، لا يتجاوزه فىجريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال . والقمر يبعد عن الأرضبنحو أربعين ومئتى مليون منالأميال . . وهذه المسافات علىبعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بينمجموعتناالشمسية وأقرب

نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومئة ألف من الأميال فى الثانية الواحدة ! (أى إن أقرب نجم إلينا يبعدنا بنحو مئة وأربعة مليون مليون ميل !) .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع — حتى يأتى الأجل المعلوم — فالشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه فى طريقه ، لأن الدورة التى تجىء بالليل والنهار لا تختل أبدا فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه فى الجريان !

« وكل فى فلك يسبحون » . .

وحركة هذه الأجرام فى الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين فى الخضم الفسيح . فهى مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطا سابحة فى ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التى لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة . متناثرة فى ذلك الفضاء ، سابحة فى ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تائهة فى ذلك الفضاء الفسيح ! ! !

***

«وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . .

إن فى السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ، والفلك المشحون السابح فى الماء يحمل ذرية بنى آدم ! مناسبة فى الشكل ، ومناسبة فى الحركة ، ومناسبة فى تسخير هذا وذلك بأمر الله ، وحفظه بقدرته فى السماوات والأرض سواء .

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرا لو فتحوا قلوبهم للآيات .

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبى البشر الثانى ؛ الذى حمل فيه ذرية آدم . ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التى تمخر بهم العباب . وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة

الله ونواميسه التى تحكم الكون وتصرفه ؛ وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أوالبخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره .

« وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . .

والسفينة فى الخضم كالريشة فى مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدركها رحمة الله فهى هالكة هالكة فى لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها فى قارب ذى شراع أو فى عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر المخيف ؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات فى هذا الخلق الهائل الذى تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح ، ولا تمسكه يد سواها فى أرض أو سماء . وذلك حتى يقضى الكتاب أجله ، ويحل الوعد المقدور فى حينه ، وفق ماقدره الحكيم الخبير : « ومتاعا إلى حين » . .

* * *

ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد فى غفلة ، لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ؛ ولا يكفون عن سخريتهم وتكذيبهم ، واستعجالهم بالعذاب الذى ينذرهم به المرسلون :

« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير فى قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى . وهى بذاتها كافية أن تثير فى القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ؛ وأن تخلطه بهذا الوجود . هذا الكتاب المفتوح الذى تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تدبيره وتقديره . ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها . والله — لعظيم رحمته — لا يتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويوجههم ويدعوهم إلى رب هذا الكون وبارىء هذا الوجود . ويثير فى قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب ، وهى محيطة بهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، إلا ينتبهوا لها يقعوا فيها فى كل خطوة من

خطواتهم . وتتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الـكونية التى تحيط بهم فى حيثما يتجهون . ولـكنهم مع هذا يظلون فى عمايتهم سادرين :

« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

وإذا دعوا إلى إنفاق شىء من مالهم لإطعام الفقراء : قالوا ساخرين متعنتين :

« أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » . .

وتطاولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين :

« إن أنتم إلا فى ضلال مبين » !

وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلى يشى بعدم إدراكهم لسنن الله فى حياة العباد . فالله هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع . وكل مافى الأرض من أرزاق ينالها العباد هى من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً ، وماهم بقادرين على خلق شىء أصلا . ولـكن مشيئة الله فى عمارة هذه الأرض اقتضت أن تـكون للناس حاجات لاينالونها إلا بالعمل والـكد ؛ وفلاحة هذه الأرض ؛ وصناعة خاماتها ؛ ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الخيرات ومايقابلها من سلعة أونقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمـكان . كما اقتضت أن يتفاوت الناس فى المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الـكاملة فى هذه الأرض . وهذه الخلافة لاتحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها ، إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنسانى فى الأرض ، بينما يفوتها جمع المال والأرزاق ويعوزها !

وفى خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمواهب والاستعدادات اللازمة لها ، وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق ، وتصارع وتضارب فى الأنصبة والحظوظ . . فى خلال هـذا الخضم الواسع المترابط الحلقات لافى جيل واحد ، بل فى أجيال متعددة قريبة وبعيدة ، ماضية وحاضرة ومستقبلة . . فى خلال هـذا الخضم تتفاوت الأرزاق فى أيدى العباد . . ولـكى لا ينتهى هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع ، بينما هو ناشىء أصلا من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان فى الأرض ، يعالج الإسلام الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم . وبهذا

القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء . فقد جعله الإسلام زكاة . وجعل فى الزكاة معنى الطهارة . وجعلها كذلك عبادة . وألف بها بين الفقراء والأغنياء فى مجتمعه الفاضل الذى ينشئه على غير مثال .

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة الله فى الحياة : «أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » .. وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم : « إن أنتم إلا فى ضلال مبين » .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيق عن إدراك طبيعة سنن الله ، وإدراك حركة الحياة ، وضخامة هذه الحركة ، وعظمة الغاية التى تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات ، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق .

والإسلام يضع النظام الذى يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنسانى المتنوع اللازم للخلافة فى الأرض يجرى مجراه النظيف . ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

وأخيراً يجىء شكهم فى الوعد ، واستهزاؤهم بالوعيد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

ووعد الله لا يستقدم لاستعجال البشر ؛ ولا يستأخر لرجائهم فى تأخيره . فكل شىء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور فى مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التى تضع كل شىء فى مكانه ، وكل حادث فى إبانه ، وتمضى فى تصريف هذا الكون ومافيه ومن فيه وفق النظام القدر المرسوم فى إمام مبين .

أما الرد على هذا السؤال المنكر فيجىء فى مشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون، لا متى يكون . .

* * *

« ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذاهم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ماوعد الرحمان وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذاهم جميع لدينا محضرون » . .

يسأل المكذبون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . . فيكون الجواب مشهدا

خاطفاً سريعاً . . . صيحة تصعق كل حى ، وتنتهى بها الحياة والأحياء :

« ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . .

فهى تأخذهم بغتة وهم فى جدالهم وخصامهم فى معترك الحياة ، لايتوقعونها ولايحسبون لها حساباً . فإذاهم منتهون . كل على حاله التى هو عليها . لايملك أن يوصى بمن بعده . ولايملك أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . وأين هم ؟ إنهم مثله فى أماكنهم منتهون !

ثم ينفخ فى الصور فإذاهم ينتفضون من القبور . ويمضون سراعاً ، وهم فى دهش وذعر يتساءلون : « من بعثنا من مرقدنا ؟ » . ثم تزول عنهم الدهشة قليلا ، فيدركون ويعرفون : « هذا ماوعد الرحمان وصدق المرسلون » !

ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشتيت الحائر المذهول المسارع فى خطاه المدهوش .. يثوب : « فإذاهم جميع لدينا محضرون » .. وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاستعراض فى مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوى فى طبيعة الموقف، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع :

« فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولاتجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

وفى هذه السرعة الخاطفة التى تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق فى الرد على أولئك الشاكين المرتابين فى يوم الوعد المبين !

ثم يطوى السياق موقف الحساب مع المؤمنين ، ويعجل بعرض ماصاروا إليه من نعيم :

« إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون . سلام قولا من رب رحيم » . .

إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكهون . وإنهم لفى ظلال مستطابة يستروحون نسيمها . . وعلى أرائك متكئين فى راحة ونعيم هم وأزواجهم . لهم فيها فاكهة ولهم كل مايشاءون ؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم : « سلام » . . يتلقونه من ربهم الكريم : « قولا من رب رحيم » . .

فأما الآخرون فلا يطوى السياق موقف حسابهم ، بل يعرضه ويبرز فيه التبكيت والتنكيل :

« وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم — يا بنى آدم — ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » . .

إنهم يتلقون التحقير والترذيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .. انعزلوا هكذا بعيدا عن المؤمنين !

« ألم أعهد إليكم — يا بنى آدم — ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ » . .

ونداؤهم هنا « يابنى آدم » .. فيه من التبكيت ما فيه . وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين .

« وأن اعبدونى » . . « هذا صراط مستقيم » . .

واصل إلىّ مؤد إلى رضاى .

فلم تحذروا عدوكم الذى أضل منكم أجيالا كثيرة . . « أفلم تكونوا تعقلون ؟ » .

وفى نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، فى تهكم وتأنيب :

« هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » !

ولا يقف المشهد عند هذا الموقف المؤذى ويطويه . بل يستطرد العرض فإذا مشهد جديد عجيب :

« اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » . .

وهكذا يخذل بعضهم بعضا ، وتشهد عليهم جوارحهم ، وتتفكك شخصيتهم مزقا وآحادا يكذب بعضها بعضا . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً .

إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب !

***

كذلك انتهى المشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون . ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ، ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد . . ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء الله لأخذ بهما من يشاء:

« ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط ، فأنى يبصرون ؟ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون » . .

وهما مشهدان فيهما من البلاء قدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء . السخرية بالمكذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

فهم فى المشهد الأول عميان مطموسون . ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين ! « فأنى يبصرون ؟ » !

وهم فى المشهد الثانى قد جمدوا فجأة فى مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضى ولا تعود ؛ بعد أن كانوا منذ لحظة عميانا يستبقون ويضطربون !

وإنهم ليبدون فى المشهدين كالدمى واللعب ، فى حال تثير السخرية والهزء . وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويستهزئون !

* * *

ذلك كله حين يحين الموعد الذى يستعجلون . . فأما لو تركوا فى الأرض ، وعمروا طويلا وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين ؛ فإنهم صائرون إلى شر يحمدون معه التعجيل . . إنهم صائرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة فى الشعور والتفكير :

« ومن نعمره ننكسه فى الخلق . أفلا يعقلون » . .

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة . بغير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبة ! وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا . ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة . والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز . وكلما استحمق وقد قوست ظهره السنون !

فهذه العاقبة كتلك تنتظر المكذبين ، الذين لا يكرمهم الله بالإيمان الراشد الكريم . .

« وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

« أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ . قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » . .

فى هذا القطاع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التى تعالجها السورة . . قضية الوحى وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية . وقضية البعث والنشور . . تستعرض فى مقاطع مفصلة .مصحوبة بمؤثرات قوية فى إيقاعات عميقة . كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهى تعمل كل شىء فى هـذا الـكون وتمسك بمقاليد الأمور كلها . ويتمثل هـذا المعنى مركزاً فى النهاية فى الآية التى تختم السورة : « فسبحان الذى بيده ملـكوت كل شىء وإليه ترجعون » . .
فهذه اليد القوية المبتدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم . وهى خلقت الإنسان من نطفة . وهى تحيي رميم العظام كما أنشأتها أول مرة . وهى جعلت من الشجر الأخضر ناراً . وهى أبدعت السماوات والأرض . وفى النهاية هى مالـكة كل شىء فى هذا الوجود . . وذلك قوام هذا المقطع الأخير . .

« وما علمناه الشعر — وما ينبغى له — إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » . .

وردت قضية الوحى فى أول السورة : « يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . . . » . . والآن تجىء فى صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبى — صلى الله عليه وسلم — بأنه شاعر ؛ ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شعر . وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك . وأن ما جاءهم به محمد — صلى الله عليه وسلم — قول غير معهود فى لغتهم . وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر . إنما كان هذا طرفا من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه — صلى الله عليه وسلم — فى أوساط الجماهير . معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر ، الذى قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه .

وهنا ينفى الله — سبحانه — أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم . فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله . .

ثم ينفى لياقة الشعر بالرسول — صلى الله عليه وسلم — : « وما ينبغى له » فللشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال . وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال . والنبوة وحى . على منهج ثابت . على صراط مستقيم . يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله . ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال .

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحى الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر — فى أعلى صوره — أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته . فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس . هذه — فى أعلى صورها — أشواق تصعد من الأرض . وتلك فى صميمها هداية تتنزل من السماء .

« إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . .

ذكر وقرآن . . وهما صفتان لشيء واحد . ذكر بحسب وظيفته . وقرآن بحسب تلاوته . فهو ذكر لله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللسان . وهو منزل ليؤدى وظيفة محددة :

« لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين » . .

ويضع التعبير القرآنى الكفر فى مقابل الحياة . فيجعل الكفر موتا ، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة . ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لينذر من به حياة . فيجدى فيهم الإنذار . فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ؛ وظيفة القرآن بالقياس إليهم هى تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن الله لايعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة !

وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهو حى . وفريق لا يستجيب فهو ميت. ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب !

* * *

والمقطع الثانى فى هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية ، فى إطار من مشاهدات القوم ، ومن نعم البارىء عليهم ، وهم لا يشكرون :

« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون » . .

أو لم يروا ؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير . . إنها هذه الأنعام التى خلقها الله لهم وملكهم إياها . وذللها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها ، وينتفعون بها منافع شتى . . وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره ؛ ومن إيداعه ما أودع من الخصائص فى الناس وفى الأنعام ، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها . وجعلها مذللة نافعة ملبية لشتى حاجات الإنسان . وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئا . وما يملكون أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركب الله فى خصائصها أن تكون ذلولا لهم ! . .

« أفلا يشكرون ؟ » . .

وحين ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم . فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله . فيض يتمثل في كل شيء حوله . وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن . أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر . . . إلى آخره إلى آخره . . لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته . ويطرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد في هذا الكون الكبير . وتعود حياته كلها تسبيحاً لله وحمداً وعبادة آناء الليل وأطراف النهار . .

ولكن الناس لا يشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله : « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » : وفي الماضي كانت الآلهة أصناما وأوثانا ، أو شجراً أو نجوماً ، أو ملائكة أو جناً . . . والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض . ولكن الذين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ؛ وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدي عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها : « وهم لهم جند محضرون » . . وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤلهون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان . فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم . ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين!

إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها . وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أي اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية ! ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذي يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم .

« فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » .

الخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله

آلهة . والذين لا يشكرون ولا يذكرون. ليطمئن بالا من ناحيتهم . فهم مكشوفون لعلم الله . وكل مايدبرونه وما يملكونه تحت عينه . فلا على الرسول منهم . وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة . والله من ورائهم محيط . .

ولقد هان أمرهم بهذا . وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله . وهو يعلم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون . وأنهم فى قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون !

* * *

والمقطع الثالث فى هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور :

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . .

ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته فى خاصة نفسه . وهذا الواقع يصور نشأته وصيرورته مما يراه واقعاً فى حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكرراً معاداً . ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصداقا لوعد الله ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره .

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » . .

فما النطفة التى لا يشك الإنسان فى أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مهين ، لا قوام ، ولا قيمة ! نقطة من ماء تحوى ألوف الخلايا . . خلية واحدة من هذه الألوف هى التى تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذى يجادل ربه ويخاصمه ويطلب منه البرهان والدليل !

والقدرة الخالقة هى التى تجعل من هذه النطفة ذلك الخصيم المبين . وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور ؟

« وضرب لنا مثلا ــ ونسى خلقه ــ قال : من يحيي العظام وهى رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . .

ياللبساطة ! ويالمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور !

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك

النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هى النشأة الأولى ؟ أو ليس الذى حول تلك النطفة إنسانا ، وجعله خصيما مبينا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا ؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ؟ !

« قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » . .

ثم يزيدهم إيضاحا لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم مما يملكون :

« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » . .

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة ! العجيبة التى يمرون عليها غافلين . عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد ناراً ؛ ثم يصير هو وقود النار . بعد اللدونة والاخضرار . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التى يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ؛ والتى تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا فى الحس ووضوحا . والخالق هو الذى أودع الشجر خصائصه هذه . والذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . غير أننا لانرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعى . فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبة . ولا تدلنا على مبدع الوجود . ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح !

ثم يستطرد فى عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين :

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم » . .

والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . . هذه الأرض التى نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لانبلغ نحن شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل . . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التى تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها . . وهذه الشمس واحدة من مئة مليون فى المجرة الواحدة التى تتبعها شمسنا ، والتى تؤلف دنيانا القريبة ! وفى الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنيات كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مئة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة . وهم

فى انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبعمئة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال !) . . وهناك كتل ضخمة من السدم التى يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس . وهذا هو الجزء الذى يدخل فى دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التى لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجرى فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . . وكلها تجرى وتدور فى دقة وفى دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة فى الفضاء الوسيع . .

هذا الفضاء الذى تسبح فيه تلك الملايين التى لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لانحاول تصويره ولا تصوره . . فذلك شىء يدير الرؤوس !

« أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » . .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟

« بلى ! وهو الخلاق العليم » . .

ولكن الله — سبحانه — يخلق هذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير :

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن. فيكون » ..

يكون هذا الشىء سماء أو أرضا . ويكون بعوضة أو نملة . هـذا وذلك سواء أمام الكلمة . . كن . . فيكون !

ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . . فتوجه الإرادة لخلق الشىء كاف وحده لوجوده كائنا مايكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بقياسهم البشرى المحدود .

* * *

وعند هذا المقطع يجىء الإيقاع الأخير فى السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود :

« فسبحان الذى بيده ملـكوت كل شىء . وإليه ترجعون » . .

ولفظة ملـكوت بصياغتها هذه تضخم وتعظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملـكية المطلقة لـكل شىء فى الوجود . والسيطرة القابضة على كل شىء من هذا المملوك .

ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . .

إنه الإيقاع الختامى المناسب لهذه الجولة الهائلة ، وللسورة كلها ، ولموضوعاتها المتعلقة بهذه الحقيقة الـكبيرة ، التى يندرج فيها كل تفصيل . .

سُورة الصّافات مكيّة
وآياتها ١٨٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ .

« إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى ، وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

« وَقَالُوا : إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ * قُلْ : نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا : يَاوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ .

« مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ؟ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .

« إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ : أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُو ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَاهُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ : أَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ؟

« قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ ٱلْجَحِيمِ * قَالَ : تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ .

« أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ؟* إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ .

« أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ؟ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ » . .

هذه السورة المكية ـ كسابقتها ـ قصيرة الفواصل ، سريعة الإيقاع ، كثيرة المشاهد والمواقف ، متنوعة الصور والظلال ، عميقة المؤثرات ، وبعضها عنيف الوقع ، عنيف التأثير.

وهى تستهدف ـ كسائر السور المكية ـ بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صوره وأشكاله . ولكنها ـ بصفة خاصة ـ تعالج صورة معينة من صور الشرك التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلا ؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله ـ سبحانه ـ وبين الجن . وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله ـ تعالى ـ والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة ؛ تكشف عن تهافتهاوسخفها . ونظرا لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : « والصافات صفا . فالزاجرات زجرا : فالتاليات ذكرا » . . ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كى لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التى يعذب بها الظالمون فى جهنم بأنها كرؤوس الشياطين فى معرض التقبيح والتفظيع ! وفى نهاية السورة تأتى الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون .. سبحان الله عما يصفون ! » . .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التى تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود : « إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . وتنص على أن الشرك هو السبب فى عذاب المعذبين فى ثنايا مشهد من مشاهد القيامة : « فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون؛

ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء . « وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون » . . ثم تعرض بهذه المناسبة مشهدا مطولا فريدا من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذى ورد من قولهم : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » والرد عليهم : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » . .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل : « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

وتبرز فى هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه اسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله فى أروع صورها وأعمقها وأرفعها ؛ وتبلغ الذروة التى لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذى يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضىء .

***

والمؤثرات الموحية التى تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها ، تتمثل بشكل واضح فى :

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . .

وفى مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ، ومفاجآتها الفريدة ، وانفعالاتها القوية . والمشاهد التى تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقا سنلمسه عند استعراضه تفصيلا فى مكانه من السورة .

وفى القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة فى قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل — عليهما

السلام وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التى تهز القلوب هزا عميقا عنيفا .

ذلك إلى الإيقاع الموسيقى فى السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة .

* * *

ويجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة أشواط رئيسية :

الشوط الأول يتضمن افتتاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة : والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء بالكواكب . ثم تجىء مسألة الشياطين وتسمعهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها سؤالهم : « أهم أشد خلقا » أم تلك الخلائق : الملائكة والسماء والكواكب والشياطين والشهب؟ للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب . وهو مشهد فريد . .

والشوط الثانى يبدأ بأن هؤلاء الضالين لهم نظائر فى السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد فى قصص أولئك المنذرين من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ؛ وكيف كانت عاقبة المنذرين وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التى مر ذكرها . أسطورة الجن والملائكة . ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » . . وينتهى بختام السورة بتنزيه الله سبحانه والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » . . وهى القضايا التى تتناولها السورة فى الصميم . .

والآن نأخذ فى التفصيل :

* * *

« والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد . رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . .

والصافات والزاجرات والتاليات . . . طوائف من الملائكة ذكرها هنا بأعمالها التي يعلمها . والتي يجوز أن تكون هي الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله . والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة في أثناء قبض أرواحهم مثلا أو عند الحشر والسوق إلى جهنم أو في أية حالة وفي أي موضع . والتاليات للذكر . . القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته : « إن إلهكم لواحد » . . ومناسبة هذا القسم ــ كما أسلفنا ــ هو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله ، واتخاذهم آلهة بما أنهم ــ بزعمهم ــ بنات الله !

ثم يعرف الله عباده بنفسه في صفته المناسبة للوحدانية :

« رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . .

وهذه السماوات والأرض قائمة حيال العباد ؛ تحدثهم عن الخالق البارئ المدبر لهذا الملكوت الهائل ؛ الذي لا يدعي أحد أنه يملك خلقه وتدبيره ؛ ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدرة المطلقة والربوبية الحقة . « وما بينهما » . . من هواء وسحاب ، وضوء ونور ، ومخلوقات دقيقة يعرف البشر شيئاً منها الحين بعد الحين ، ويخفى عليهم منها أكثر مما يكشف لهم !

والسماوات والأرض وما بينهما من الضخامة والعظمة والدقة والتنوع والجمال والتناسق بحيث لا يملك الإنسان نفسه أمامها ــ حين يستيقظ قلبه ــ من التأثر العميق ، والروعة البالغة، والتفكر الطويل . وما عبر الإنسان بهذا الخلق العظيم من غير ما تأثر ولا تدبر إلا حين يموت قلبه ، فيفقد التأثر والاستجابة لإيقاعات هذا الكون الحافل بالعجائب .

« ورب المشارق » . .

ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهي مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة . . وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك . فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة ــ كما تتوالى المغارب ــ فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية . حتى إذا تحركت الأرض كان هناك

مشرق آخر على القطاع التالى ومغرب آخر على القطاع المقابل له وهكذا ... وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ؛ ولكن خبرهم بها الله فى ذلك الزمان القديم !

وهذا النظام الدقيق فى توالى المشارق على هذه الأرض . وهذا البهاء الرائع الذى يغمر الكون فى مطالع المشارق .. كلاهما جدير بأن يوقع فى القلب البشرى من التأثرات الموحية ، ما يهتف به إلى تدبر صنعة الصانع المبدع ، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبر ، بما يبدو من آثار الصنعة الموحدة التى لا اختلاف فى طابعها الدقيق الجميل .

تلك هى مناسبة ذكر هذه الصفة من صفات الله الواحد فى هذا المقام . وسنرى أن ذكر السماء وذكر المشارق له مناسبة أخرى فيما يلى هذه الآيات من السورة . عند الحديث عن الكواكب والشهب والشياطين والرجوم . . .

* * *

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

بعد ما مس فى مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة ، عاد يمس هنا شطرها الثانى وهو الخاص بالشياطين . وكانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسبا . وبعضهم كانوا يعبدون الشياطين على هذا الأساس . وعلى أساس أن الشياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى . .

وبعد ذكر السماوات والأرض وما بينهما وذكر المشارق . . إما مشارق النجوم والكواكب . وإما المشارق المتوالية على قطاعات الأرض . وإما هذه وتلك وأنوارها وأضواؤها . . يجىء ذكر الكواكب :

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ..

ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة ؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود فى بناء هذا الكون ؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق ؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحى ؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء. فكل شىء فيه بقدر ، وكل شىء فيه يؤدى وظيفته بدقة ؛ وهو فى مجموعه جميل .

والسماء . وتناثر الكواكب فيها . أجمل مشهد تقع عليه العين . ولا تمل طول النظر إليه. وكل نجمة نوصوص بضوئها وكل كوكب يوصوص بنوره ؛ وكأنه عين محبة تخانسك النظر ؛ فإذا أنت حدقت فيها أغمضت وتوارت ؛ وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت ! وتتبع مواقعها وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وآنا بعد آن متعة نفسية لا تملها النفس أبدا !

ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شهبا ترجم بها الشياطين كى لا تدنو من الملأ الأعلى :

« وحفظا من كل شيطان مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » ..

فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتذوده عن الاستماع إلى مايدور فى الملأ الأعلى ؛ فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحرا، وله فى الآخرة عذاب موصول لا ينقطع . ولقد يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور فى الملأ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه فى هبوطه فيصيبه ويحرقه حرقا .

ونحن لانعرف كيف يتسمع الشيطان المارد ؛ ولا كيف يخطف الخطفة ؛ ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب . لأن هـذه كلها غيبيات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كيفياتها ؛ ومجالنا فيها هو تصديق ماجاء من عند الله فيها . وهل نعلم عن شىء فى هـذا الكون إلا القشور ؟!

والمهم أن هـذه الشياطين التى تمنع من الوصول إلى الملأ الأعلى ، ومن التسمع لما يدور فيه هى التى يدعى المدعون أن بينها وبين الله نسبا ، ولو كان شىء من هذا صحيحا لتغير وجه المعاملة . ولما كان مصير الأنسباء والأصهار ــ بزعمهم ــ هو المطاردة والرجم والحرق أبدا !

***

وبعد ذكر الملائكة . وذكر السماوات والأرض وما بينهما . وذكر الكواكب التى تزين السماء الدنيا . وذكر الشياطين المردة والقذائف التى تلاحقها . . يكلف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يسألهم أهم أشد خلقا أم هـذه الخلائق ؟ وإذا كانت هـذه الخلائق أشد وأقوى فهم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها ، ويستبعدون وقوعها ، وهى لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى :

« فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون.

وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون : وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أوآباؤنا الأولون ؟ » .

فاستفتهم واسألهم إذا كانت الملائكة والسماوات والأرض وما بينهما والشياطين والكواكب والشهب كلها من خلق الله . فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه الأكوان والخلائق ؟

ولا ينتظر منهم جوابا ، فالأمر ظاهر ؛ إنما هو سؤال الاستنكار والتعجيب من حالهم العجيب . وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمور . ومن ثم يعرض عليهم مادة خلقهم الأولى . وهى طين رخو لزج من بعض هذه الأرض ، التى هى إحدى تلك الخلائق :

« إنا خلقناهم من طين لازب » . .

فهم قطعا ليسوا أشد خلقا من تلك الخلائق ! وموقفهم إذن عجيب . وهم يسخرون من آيات الله ، ومن وعده لهم بالبعث والحياة . وسخريتهم هذه تثير العجب فى نفس الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهم فى موقفهم سادرون :

« بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون » . .

وحق لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يعجب من أمرهم . فإن المؤمن الذى يرى الله فى قلبه كما يراه محمد — صلى الله عليه وسلم — ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب — لاشك — ويدهش كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ؟ وكيف يمكن أن تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعجب منهم هذا العجب، إذا هم يسخرون من القضية الواضحة التى يعرضها عليهم ، سواء فى وحدانية الله ، أو فى شأن البعث والنشور . وإذا هم مطموسون لا تتفتح قلوبهم للتذكير . وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجيب ممن يريهم إياها ، واستدعاء أسباب السخرية وطلبها طلبا كما يوحى لفظ « يستسخرون » !

ومن ذلك وصفهم القرآن بأنه سحر ، وعجبهم مما يعدهم به من البعث :

« وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » . .

لقد غفلوا عن آثار قدرة الله فيما حولهم ، وفى ذات أنفسهم . غفلوا عن آثار هذه القدرة فى خلق السماوات والأرض وما بينهما ؛ وفى خلق الكواكب والشهب ؛ وفى خلق الملائكة والشياطين ؛ وفى خلقهم هم أنفسهم من طين لازب . . غفلوا عن آثار القدرة فى هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، هم وآباؤهم الأولون ! وما فى هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ؛ لمن يتأمل هذا الواقع ويتدبره أقل تدبر ؛ فى ضوء هذه المشاهدات التى تحيط بهم فى الآفاق وفى أنفسهم .

***

وإذ كانوا لايتدبرون هذه المشاهدات فى هوادة ويسر ، وفى طمأنينة وهدوء . فهو يوقظهم إذن بشدة وعنف ، على مشهدهم فى الآخرة مبعوثين . ويصور لهم ذلك المشهد وهم فيه يضطربون[1] :

« قل : نعم وأنتم داخرون » ..

نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون . ستبعثون وأنتم داخرون ، ذلولون ، مستسلمون . غير مستعصين ولا متأبين .. نعم . . ثم يدخل فى استعراض ذلك كيف يكون . وإذا هم أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب . المتنوعة الأساليب . المزدحمة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة . يلتقى فيها الوصف بالحوار . فتسير على نسق الحكاية فترة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل عرض الأحداث والحركات تعليقات وتعقيبات عليها . وبذلك يستكمل المشهد كل سمات الحياة :

« فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » ..

هكذا فى ومضة خاطفة بمقدار ماتنبعث صيحة واحدة . تسمى « زجرة » للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف فى توجيهها ، والاستعلاء فى مصدرها .. « فإذا هم ينظرون » . . فجأة وبلا تمهيد أو تحضير . وإذا هم يصيحون مبهوتين :

« قالوا : ياويلنا . هذا يوم الدين » . .

وبينما هم فى بهتتهم وبغتتهم إذا صوت يحمل إليهم التقريع من حيث لا يتوقعون :

« هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ».. !

---

(١) نستعير هنا فى تفسير هذا المشهد صفحات من كتاب : «مشاهد القيامة فى القرآن» مع تصرف قليل.

وهكذا ينتقل السياق من الخبر إلى الخطاب موجها لمن كانوا يكذبون بيوم الدين . وإن هى إلا تقريعة واحدة حاسمة . ثم يوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ :

« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم. وقفوهم إنهم مسؤولون » .

احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون . . وفى الأمر — على مافيه من لهجة جازمة — تهكم واضح فى قوله : «فاهدوهم إلى صراط الجحيم» .. فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنها لهى الرد المكافىء لما كان منهم من ضلال عن الهدى القويم . وإذ لم يهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا اليوم إلى صراط الجحيم !

وهاهم أولاء قد هدوا . هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال . وهاهو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع فى صورة سؤال برىء !

« مالكم لا تناصرون ؟ » !

مالكم لا ينصر بعضكم بعضا ، وأنتم هنا جميعا ؟ وكلكم فى حاجة إلى الناصر المعين ؟ ! ومعكم آلهتكم التى كنتم تعبدون !

ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام ! إنما يرد التعليق والتعقيب :

« بل هم اليوم مستسلمون » . .

عابدين . ومعبودين !!!

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية ، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضا :

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » . .

أى كنتم توسوسون لنا عن يميننا — كما هو المعتاد فى حالة الوسوسة بالأسرار غالبا — فأنتم مسؤولون عما نحن فيه .

وعندئذ ينبرى المتهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على موجهيه :

« قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين » ..

فلم تكن وسوستنا هى التى أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدى . .

« وما كان لنا عليكم من سلطان » . .

نرغمكم به على قبول مانراه ، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه .

« بل كنتم قوما طاغين » . .

متجاوزين للحق ، ظالمين لا تقفون عند حد .

« فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » . . .

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب .

وقد انزلقتم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا فى غوايتنا :

« فأغويناكم إنا كنا غاوين » . .

وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد ، يحمل أسبابه ، ويعرض ماكان منهم فى الدنيا مما حقق قول الله عليهم فى الآخرة :

« فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ؟ ويقولون : أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » .

ثم يكمل التعليق متوجها فيه بالتأنيب والتقبيح لقائلى هذا الكلام المرذول :

« بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ماكنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين » . .

وعلى ذكر عباد الله المخلصين ـ الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم ـ يعرض صفحة هؤلاء العباد المخلصين فى يوم الدين . ويعود العرض متبعا نسق الإخبار المصور للنعيم الذى يتقلبون فى أعطافه ـ فى مقابل ذلك العذاب الأليم للمكذبين ـ :

« أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . فى جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون ... » .

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم . نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس . وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه من ألوان النعيم .

فهم ـ أولا ـ عباد الله المخلصون . وفى هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم . وهم ـ ثانيا ـ « مكرمون » فى الملأ الأعلى . وياله من تكريم ! ثم إن لهم « فواكه » وهم على « سرر متقابلين » . وهم يخدمون فلا يتكلفون شيئاً من الجهد فى دار الراحة والرضوان والنعيم :

« يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » . .
وتلك أجمـــل أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابيله . فلا خمار يصدع الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ! « وعندهم قاصرات الطرف عين » حور حييات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن « عين » واسعات جميلات العيون ! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة : « كأنهن بيض مكنون » . . لاتبتذله الأيدي ولا العيون !

ثم يمضي في الحكاية المصورة ؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء ــ بعد ما يسرت لهم كل ألوان المتاع ــ ينعمون بسمر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر ــ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في أول المشهد ــ وإذا أحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص على إخوانه طرفا مما وقع له :

« قال قائل منهم : إني كان لي قرين . يقول : أإنك لمن المصدقين . أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمدينون ؟ » . .

لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله في دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟ !

وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره . وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم . فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه :

قال : « هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم » . .

عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم . يتوجه إليه ليقول له : ياهذا . لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك . لولا أن الله قد أنعم علي ، فعصمني من الاستماع إليك:

« قال : تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين » . .

أي لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون .

وتثير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين . فيحب أن يؤكدها ويستعرضها ، ويطمئن إلى دوامها ، تلذذا بها وزيادة في المتاع بها فيقول :

« أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ؟ وما نحن بمعذبين ؟ إن هذا لهو الفوز العظيم » . .

وهنا يرد تعليق يوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق لمثل هذا المصير :

« لمثل هذا » النعيم الذى لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من نفاد ، ولا يعقبه موت ، ولا يتهدده العذاب. لمثل هذا فليعمل العاملون .. فهذا هو الذى يستحق الاحتفال . وما عداه مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود .

ولكى يتضح الفارق الهائل بين هذا النعيم الخالد الآمن الدائم الراضى ؛ والمصير الآخر الذى ينتظر الفريق الآخر . فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر والحساب الذى ورد فى مطلع المشهد الفريد :

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » . .

أذلك النعيم المقيم خير منزلا ومقاما أم شجرة الزقوم ؟

وما شجرة الزقوم ؟

« إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين » . .

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ! ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كانت طلعا يأكلونه ويملأون منه البطون ؟ !

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخروا وقالوا : كيف تنبت شجرة فى الجحيم ولا تحترق . وقال قائل منهم هو أبو جهل ابن هشام يسخر ويتفكه : « يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزبد ! والله لئن استمكنا منها لنزقمنها تزقما ! ولكن شجرة الزقوم هذه شىء آخر غير ذلك الطعام الذى كانوا يعرفون !

« فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون » . .

فإذا شاكت حلوقهم وهى كرؤوس الشياطين ــ وحرقت بطونهم ــ وهى تنبت فى أصل الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ! ــ وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الغلة ويطفىء

اللهيب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخنا مشوبا غــير خالص : « ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم » . .

وبعد هــذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . ويا له من نزل ! ويا له من معاد !

« ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » . . .

بذلك يختم المشهد الفريد . وينتهي الشوط الأول من السورة . وكأنمـا كان قطعة من الواقع المشهود .

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

« وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ : أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ * مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ : أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ؟ * قَالُوا : ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ

مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ . قَالَ : يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ .

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ * ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟

« وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » . .

في هـــذا الدرس يعود السياق من الجولة الأولى في ساحة الآخرة ، وفي مجالي النعيم ودارات العذاب ، يعود ليستأنف جولة أخرى في تاريخ البشر مع آثار الذاهبين الأولين ، يعرض فيها قصة الهـــدى والضلال منذ فجر البشرية الأولى ؛ فإذا هي قصة مكرورة معادة ؛ وإذا القوم الذين يواجهون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة بالـكفر والضلال بقية من أولئك المـكذبين الضالين . ويكشف لهؤلاء عما جرى لمن كان قبلهم ، ويلمس قلوبهم بهـذه الصفحات المطوية في بطون التـاريخ . ويطمئن المؤمنين برعاية الله التي لم تتخل في الماضي عن المؤمنين .

وفي هذا السياق يستعرض طرفا من قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس . . ويقف وقفة أطول أمام قصة إبراهيم وإسماعيل . يعرض فيها عظمة الإيمان والتضحية والطاعة ، وطبيعة الإسلام الحقيقية كما هي في نفسي إبراهيم وإسماعيل ، في حلقة لا تعرض في غير هـذه السورة ، ولا ترد إلا في هذا السياق . . وهـذا القصص هو قوام هذا الدرس الأصيل . .

* * *

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

إنهم عريقون في الضلالة ، وهم في الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ؛ بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين ولا متعقلين :

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » . .

وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التي يمثلها أكثر الأولين :

« ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين » . .

وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير :

« ولقد أرسلنا فيهم منذرين » . .

ولـكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المـكذبين ؟ وكيف كانت عاقبة عباد الله المخلصين ؟ إنها معروضة في سلسلة القصص . وهذا الإعلان في مقدمتها للتنبيه :

« فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين » ...

* * *

ويبدأ بقصة نوح فى إشارة سريعة تبين العاقبة ، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين :

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين » . .

وتتضمن هذه الإشارة توجه نوح بالنداء إلى ربه ، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية . إجابتها من خير مجيب . الله سبحانه . « فلنعم المجيبون » . . وتتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم . كرب الطوفان الذى لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة . . وتتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عمارا لهذه الأرض وخلفاء . وأن يبقى ذكره فى الأجيال الآتية إلى آخر الزمان : « وتركنا عليه فى الآخرين » . . وتعلن فى الخافقين سلام الله على نوح . جزاء إحسانه : «سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين » . . وأى جزاء بعد سلام الله . والذكر الباقى مدى الحياة ! أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان : « إنه من عبادنا المؤمنين » .. وهذه هى عاقبة المؤمنين . . فأما غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء : « ثم أغرقنا الآخرين » . . ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد . وفق ذلك الإجمال فى مقدمة القصص : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

* * *

ثم تجىء قصة إبراهيم . تجىء فى حلقتين رئيسيتين : حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له وخذلان شانئيه ــ وهى حلقة تكررت من قبل فى سور القرآن ــ وحلقة جديدة لا تعرض فى غير هذه السورة . وهى الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، فى أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب ! ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم فى عالم العقيدة فى تاريخ البشرية الطويل .

« وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » ..

هـذا هو افتتاح القصة ، والمشهد الأول فيها . . نقلة من نوح إلى إبراهيم . وبينهما صلة من العقيدة والدعوة والطريق . فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ ولكنه المنهج الإلهى الواحد ، الذى يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه .

ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير :

« إذ جاء ربه بقلب سليم » . .

وهى صورة الاستسلام الخالص . تتمثل فى مجيئه لربه . وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل فى سلامة قلبه . والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله ، وهو فى الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم . ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة ، والإخلاص والاستقامة ... إلا أنه يبدو بسيطا غير معقد ، ويؤدى معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات ! وتلك إحدى بدائع التعبير القرآنى الفريد .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه . استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك :

« إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . وهو يراهم يعبدون أصناما وأوثانا . فيهتف بهم هتاف الفطرة السليمة فى استنكار شديد . « ماذا تعبدون ؟ » ماذا ؟ فإن ماتعبدونه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ! وما يعبده الإنسان فى شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذى لاشبهة فيه . فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصدا وإلى الافتراء عمدا : « أإفكا آلهة دون الله تريدون ؟ » وما هو تصوركم لله ؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذى تنكره الفطرة لأول وهلة : « فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . وهى كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهى تطلع على الأمر البين الذى يصدم الحس والعقل والضمير .

ويسقط السياق هنا ردهم عليه ، وحوارهم معه ؛ ويمضى مباشرة فى المشهد التالى إلى عزيمته التى قررها فى نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف :

«فنظر نظرة فى النجوم . فقال : إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضربا باليمين » . .

ويروى أنه كان للقوم عيد ــ ربما كان هو عيد النيروز ــ يخرجون فيه إلى الحدائق

والخلوات ، بعد أن يضعوا الثمار بين يدى آلهتهم لتباركها . ثم يعودون بعد الفسحة والمرح فيأخذون طعامهم المبارك ! وأن إبراهيم – عليه السلام – بعد أن يئس من استجابتهم له ؛ وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذى لا صلاح له ، اعتزم أمرا . وانتظر هـذا اليوم الذى يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتزم . وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه . فلما دعى إلى مغادرة المعبد قلب نظره إلى السماء وقال : « إنى سقيم » . لا طاقة لى بالخروج إلى التنزهات والخلوات . فإنما يخرج إليها طلاب اللذة والمتاع ، أخلياء القلوب من الهم والضيق – وقلب إبراهيم لم يكن فى راحة ونفسه لم تسكن فى استرواح.

قال ذلك معبراً عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليتركوه وشأنه . ولم يكن هذا كذبا منه. إنما كان له أصل فى واقع حياته فى ذلك اليوم . وإن الضيق ليمرض ويسقم ذويه !

وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم فى ذلك العيد ؛ فلم يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل تولوا عنه مدبرين ، مشغولين بما هم فيه . وكانت هذه هى الفرصة التى يريد .

لقد أسرع إلى آلهتهم المدعاة . وأمامها أطايب الطعام وبواكير الثمار . فقال فى تهكم : « ألا تأكلون ! » .. ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال . فاستطرد فى تهكمه وعليه طابع الغيظ والسخرية : « مالكم لا تنطقون ؟ » . . وهى حالة نفسية معهودة . أن يوجه الإنسان كلامه إلى ما يعلم حقيقته ، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق ! إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة من القوم وتصورهم السخيف! . . ولم تجبه الآلهة مرة أخرى ! ! وهنا أفرغ شحنة الغيظ المكتوم حركة لا قولا : « فراغ عليهم ضربا باليمين » . . وشفى نفسه من السقم والهم والضيق . . . !

وينتهى هذا المشهد فيليه مشهد جديد . وقد عاد القوم فاطلعوا على جذاذ الآلهة ! ويختصر السياق ما يفصله فى سورة أخرى من سؤالهم عمن صنع بآلهتهم هـذا الصنع ، واستدلالهم فى النهاية على الفاعل الجرىء . يختصر هذا ليقفهم وجها لوجه أمام إبراهيم !

« فأقبلوا إليه يزفون » . .

لقد تسامعوا بالخبر ، وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله زفيفا .. وهم جمع كثير غاضب هائج ، وهو فرد واحد . ولكنه فرد مؤمن . فرد يعرف

طريقه . فرد واضح التصور لإلهه . عقيدته معروفة له محدودة . يدركها فى نفسه ، ويراها فى الـكون من حوله . فهو أقوى من هذه الـكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور . ومن ثم يجبههم بالحق الفطرى البسيط لا يبالى كثرتهم وهياجهم وزفيفهم !

« قال : أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وماتعملون ؟ » . .

إنه منطق الفطرة يصرخ فى وجههم : « أتعبدون ماتنحتون ؟ » . . والمعبود الحق ينبغى أن يكون هو الصانع لا المصنوع : « والله خلقكم وما تعملون » . . فهو الصانع الوحيد الذى يستحق أن يكون المعبود .

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته ، إلا أن القوم فى غفلتهم وفى اندفاعهم لم يستمعوا له — ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط ؟ — واندفع أصحاب الأمر والنهى فيهم يزاولون طغيانهم فى صورته الغليظة :

« قالوا : ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم » . .

إنه منطق الحديد والنار الذى لا يعرف الطغاة منطقا سواه ؛ عند ما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل . وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين .

ويختصر السياق هنا ماحدث بعد قولتهم تلك ، ليعرض العاقبة التى تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المـكذبين :

« فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » . .

وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل — من الطغاة والمتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الـكبراء — إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين ؟ . .

* * *

ثم تجىء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم . . لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه . لقد أرادوا به الهلاك فى النار التى أسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأخسرين ؛ ونجاه من كيدهم أجمعين .

عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ؛ وطوى صفحة لينشر صفحة :

« وقال : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين » . .

هكذا . . إنى ذاهب إلى ربى .. إنها الهجرة . وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية . هجرة يترك وراءه فيها كل شىء من ماضى حياته . يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل مايربطه بهذه الأرض،وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففا من كل شىء ، طارحا وراءه كل شىء ، مسلما نفسه لربه لايستبقى منها شيئاً . موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شىء . إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له ؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة . وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل مايشده إلى الأرض التى نشأ فيها ، والتى انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه فى الجحيم ! فاتجه إلى ربه الذى أعلن أنه ذاهب إليه . اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح :

« رب هب لى من الصالحين » . .

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شىء ، وجاء إليه بقلب سليم . .

« فبشرناه بغلام حليم » . .

هو إسماعيل ــ كما يرجح سياق السيرة والسورة ــ وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم .

والآن آن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة إبراهيم . بل فى حياة البشر أجمعين . وآن أن نقف من سياق القصة فى القرآن أمام المثل الموحى الذى يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم . .

« فلما بلغ معه السعى . قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال: ياأبت افعل ماتؤمر : ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . .

يالله ! ويالروعة الإيمان والطاعة والتسليم . .

هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . هاهو ذا يرزق فى كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ، ويرافقه فى الحياة . . ها هو ذا مايكاد يأنس ويستروح بهـذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . . نعم إنها إشارة. مجرد إشارة. وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا . ولـكنها إشارة من ربه . . وهـذا يكفى . . هذا يـكفى ليلبى ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا يارب أذبح ابنى الوحيد ؟ !

ولـكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا يستسلم فى جزع ، ولا يطيع فى اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك فى كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل فى هدوء وفى اطمئنان عجيب :

« قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك . فانظر ماذا ترى » . .

فهى كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذى يواجهه ، الواثق بأنه يؤدى واجبه . وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الأمر فيؤديه ، فى اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق — مافى ذلك شك — فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمرا تنتهى به حياته . . إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . . وهو — مع هـــذا — يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ؛ ويطلب إليه أن يتروى فى أمره ، وأن يرى فيه رأيه !

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه . وينتهى . إنما يعرض الأمر عليه كالذى يعرض المألوف من الأمر . فالأمر فى حسه هكذا . ربه يريد . فليكن مايريد . على العين والرأس . وابنه ينبغى أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما ، لا قهرا واضطرارا . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ؛ وأن ينال الخير الذى يراه هو أبقى من الحياة وأقنى . .

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟

إنه يرتقى إلى الأفق الذى ارتقى إليه من قبل أبوه :

« قال : ياأبت افعل ماتؤمر . ستجدنى ــ إن شاء الله ــ من الصابرين » . .

إنه يتلقى الأمر لا فى طاعة واستسلام فحسب . ولـكن فى رضى كذلك وفى يقين . .

« ياأبت » . . فى مودة وقربى . فشبح الذبح لايزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لايفقده أدبه ومودته .

« افعل ماتؤمر » .. فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تـكفى لـكى يلبى وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه فى إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

« ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على مايراد به : « ستجدنى ــ إن شاء الله ــ من الصابرين » . .

ياللأدب مع الله ! ويالروعة الإيمان . ويالنبل الطاعة . ويالعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والـكلام . . يخطو إلى التنفيذ :

« فلما أسلما وتله للجبين » . .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان . .

إن الرجل يمضى فيكب ابنه على جبينه استعدادا . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما .. فهذا هو الإسلام . هذ هو الإسلام فى حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم . . وتنفيذ . . وكلاهما لا يجـــد فى نفسه إلا هـــذه المشاعر التى لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد فى الميدان ، يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولـكن هـــذا كله شىء والذى

يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر .. ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه . . وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما . .

كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدني . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح . .

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

« وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » . .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هي النفس والحياة . وأنت — ياإبراهيم — قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم. وهذا ينوب عنه ذبح . أي ذبح من دم ولحم ! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلا من إسماعيل !

وقيل له : « إنا كذلك نجزي المحسنين » .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء !

ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذى ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربهـا لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنمـا يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفدّاها . وأكرمها كما أكرم أباها . .

« وتركنا عليه فى الآخرين » . .

فهو مذكور على توالى الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهى وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين .

« سلام على إبراهيم » . .

سلام عليه من ربه . سلام يسجل فى كتابه الباقى . ويرقم فى طوايا الوجود الكبير .

« كذلك نجزى المحسنين » . .

كذلك نجزيهم بالبلاء . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .

« إنه من عبادنا المؤمنين » . .

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق فى شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين :

« وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق » . .

وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب

إنما هى وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

« ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسة مبين » .

* * *

ومن ذريتهما موسى وهارون :

« ولقد مننا على موسى وهارون . ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم . وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين » ..

وهذه اللمحة من قصة موسى وهارون تعنى بإبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما . وبنجاتهما وقومهما « من الكرب العظيم » الذى تفصله القصة فى السور الأخرى . وبالنصر والغلبة على جلاديهم من فرعون وملئه . وبإعطائهما الكتاب الواضح المستبين . وهدايتهما إلى الصراط المستقيم . صراط الله الذى يهدى إليه المؤمنين . وبإبقاء ذكرهما فى الأجيال الآتية والقرون الأخيرة . وتنتهى هذه اللمحة بالسلام من الله على موسى وهارون. والتعقيب المتكرر فى السورة لتقرير نوع الجزاء الذى يلقاه المحسنون ، وقيمة الإيمان الذى يكرم من أجله المؤمنون . .

* * *

وتعقب تلك اللمحة لمحة مثلها عن إلياس ، والأرجح أنه النبى المعروف فى العهد القديم باسم إيلياء . وقد أرسل إلى قوم فى سورية كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا . وما تزال آثار مدينة بعلبك تدل على آثار هذه العبادة .

« وإن إلياس لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » :

ولقد دعا إلياس قومه إلى التوحيد ، مستنكرا عبادتهم لبعل ، وتركهم «أحسن الخالقين»

ربهم ورب آبائهم الأولين . كما استنكر إبراهيم عبادة أبيه وقومه للأصنام . وكما استنكر كل رسول عبادة قومه الوثنيين .

وكانت العاقبة هى التكذيب . والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين . إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم .

وتختم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة فى السورة ، لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله . ولبيان جزاء المحسنين . وقيمة إيمان المؤمنين .

وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة فى مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية فى الآية : « سلام على إلياسين » فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقى فى إرجاع اسم إلياس بصيغة « إلياسين » على طريقة القرآن فى ملاحظة تناسق الإيقاع فى التعبير[1] .

* * *

ثم تأتى لمحة عن قصة لوط . التى ترد فى المواضع الأخرى تالية لقصة إبراهيم :

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين. وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟ » ..

وهى أشبه باللمحة التى جاءت عن قصة نوح . فهى تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته . وتدمير المكذبين الضالين . وتنتهى بلمسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط فى الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية . ولا تخاف عاقبة كعاقبتها الحزينة !

* * *

وتختم هذه اللمحات بلمحة عن يونس صاحب الحوت :

« وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين » . .

ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس . ولكن المفهوم أنهم كانوا فى بقعة قريبة من البحر .

---

(١) يراجع فصل التناسق الفنى فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فقرة الإيقاع الموسيقى .

وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدرا بتكذيب قومه . فأنذرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضبا آبقا . فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفى وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هـذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لابد أن يلقى فى الماء لتنجو السفينة من الغرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس ـ وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه فى البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو « مليم » أى مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التى أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له . وعند ما أحس بالضيق فى بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين. وقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت . « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » . وقد خرج من بطن الحوت سقيما عاريا على الشاطىء . « فأنبتنا عليه شجرة من يقطين » . وهو القرع . يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذى يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة . وكان هـذا من تدبير الله ولطفه . فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبا . وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين : « فآمنوا فمتعناهم إلى حين » وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين[1] .

وهذه اللمحة بسياقها هنا تبين عاقبة الذين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الذين لا يؤمنون . فيختار قوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحدى العاقبتين كما يشاءون!!

وكذلك ينتهى هذا الشوط من السورة بعد تلك الجولة الواسعة على مدار التاريخ من لدن نوح ، مع المنذرين : المؤمنين منهم وغير المؤمنين ..

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى

(1) تراجع القصة فى سورة الأنبياء الجزء السابع عشر .

ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ؟ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ؟ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً ، وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ! * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .

« فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ .

« وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ . *

« وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ : * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ؟ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

« سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » . .

على ضوء ذلك القصص الذى سبق به الشوط الثانى فى السورة ، وما اشتمل عليه من حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله أو يشركون معه بعض خلقه . وعلى ضوء تلك الحقيقة ذاتها كما تضمنها الدرس الأول فى السورة .. يوجه فى هذا الشوط الأخير من السورة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يناقش معهم تلك الأسطورة التى يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله . والأسطورة الأخرى التى يزعمون فيها أن بينه – سبحانه – وبين الجنة نسبا . وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل

أن تأتيهم هذه الرسالة من تمنيهم أن يرسل الله فيهم رسولا ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول . وكيف كفروا عند ماجاءهم الرسول .. وتختم السورة بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون . والتوجه بالحمد لله رب العالمين ..

* * *

«فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » ..

إنه يحاصر أسطورتهم فى كل مساربها ؛ ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التى يعيشون فيها . وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ؛ ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقا أقل رتبة من الذكر . ثم هم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث . وأنهم بنات الله !

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة :

« فاستفتهم .. ألربك البنات ولهم البنون » ؟

أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ؛ جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ ! أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ ! إن هذا أو ذاك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها . من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟

« أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون؟ » .

ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله :

« ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون » .

وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات . فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

« أصطفى البنات على البنين » !

ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجارى :

« مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ » .

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟

« أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » . .

والأسطورة الأخرى . أسطورة الصلة بينه ــ سبحانه ــ وبين الجنة :

« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » . .

وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله ــ بزعمهم ــ ولدتهم له الجنة ! وذلك هو النسب والقرابة ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله . وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله . وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر !

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت :

« سبحان الله عما يصفون » . .

ويستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب مكرهين تلك الطائفة المؤمنة . وقد كان فى الجن مؤمنون . .

« إلا عباد الله المخلصين » . .

ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين وما يعبدون من آلهة مزعومة ، وما هم عليه من عقائد منحرفة . يتوجه الخطاب إليهم ، من الملائكة كما يبدو من التعبير :

« فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم . وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » .

أى إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله ولا تضلون من عباده إلا من هو محسوب من أهل الجحيم ، الذين قدر عليهم أن يصلوها . وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة محسوب من الطائعين . فللجحيم وقود من نوع معروف ، طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة ؛ ويستمع للفاتنين .

ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذى لا يتعداه . فهم عباد من خلق الله . لهم وظائف فى طاعة الله . فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله . ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوز حده . والله هو الله .

* * *

ثم يعود للحديث عن المشركين الذين يطاقون هذه الأساطير ؛ فيعرض عهودهم ووعودهم، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين ـ من إبراهيم أو من جاء بعده ـ لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا :

« وإن كانوا ليقولون : لوأن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين » ..

حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ماجاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون :

« فكفروا به . فسوف يعلمون » . .

فالتهديد الخفى فى قوله : « فسوف يعلمون » هو اللائق بالكفر بعد التمنى والوعود ! وبمناسبة التهديد يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » ..

والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة فى الأرض ؛ وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ؛ وبقيت العقائد التى جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شىء هى أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر فى أنحاء الأرض . وكل المحاولات التى بذلت لمحو العقائد الإلهية التى جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى فى الأرض التى نبعت منها . وحقت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون .

هذه بصفة عامة . وهى ظاهرة ملحوظة . فى جميع بقاع الأرض . فى جميع العصور .

وهى كذلك متحققة فى كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة . إنها غالبة منصورة مهما وضعت فى سبيلها العوائق ، وقامت فى طريقها العراقيل . ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة . وإن هى إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهى إلى الوعد الذى وعده الله لرسله . والذى لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها فى طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تمضى هذه الكواكب والنجوم

فى دوراتها المنتظمة ؛ وكما يتعاقب الليل والنهار فى الأرض على مدار الزمان ؛ وكما تنبثق الحياة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء . . ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبدا ولا تتخلف وقد تتحقق فى صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة فى صورة جديدة إلا بعد حين !

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة ؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ماأراده الله هو الخير لهم وللإسلام . وكان هو النصر الذى أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .

ولقد يهزم جنود الله فى معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء ؛ لأن الله يعدهم للنصر فى معركة أكبر . ولأن الله يهيء الظروف من حولهم ليؤتى النصر يومئذ ثماره فى مجال أوسع ، وفى خط أطول ، وفى أثر أدوم .

لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تتخلف ولا تحيد :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » .

* * *

وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعد الله وكلمته ، ويترقب ليبصرهم وقد حقت عليهم الكلمة، ويدعهم ليبصروا ويروا رأى العين كيف تكون :

« فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون ؟ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون » . .

فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم ؛ ودعهم لليوم الذى تراهم فيه ويرون هم ما ينتهى إليه وعد الله فيك وفيهم . وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا ، فياويلهم يوم ينزل بهم . فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء ، وقد قدم له النذير .

ويكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم والتهديد الملفوف فى ذلك الأمر المخيف : « وتول عنهم حتى حين » . . كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون : « وأبصر فسوف يبصرون » .. ويدعه مجملا يوحى بالهول المرهوب ..

* * *

ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه واختصاصه بالعزة . وبالسلام من الله على رسله . وبإعلان الحمد لله الواحد .. رب العالمين بلا شريك ..

« سبحان ربك ــ رب العزة ــ عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمـــد لله رب العالمين » . .

وهو الختام المناسب لموضوعات السورة . الملخص للقضايا التى عالجتها السورة .

سورة ص مكية
وآياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« صٓ وَٱلْقُرْآنِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ : هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ * وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ * أَأُنْزِلَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنْظُرُ هٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا : رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ . . . » . .

هذه السورة مكية ، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد ، وقضية الوحى إلى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقضية الحساب فى الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاثة

فى مطلعها الذى يؤلف الشوط الأول منها . وهو الآيات الكريمة التى فوق هذا الكلام . وهى تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التى تلقى بها كبار المشركين فى مكة دعوة النبى — صلى الله عليه وسلم — لهم إلى توحيد الله ؛ وإخبارهم بقصة الوحى واختياره رسولا من عند الله : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل الآلهة إلها واحدا : إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » .. كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب : « وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . .

لقد استكثروا أن يختار الله — سبحانه — رجلا منهم ، لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد ابن عبد الله . الذى لم تسبق له رياسة فيهم ولا إمارة ! ومن ثم ساءلهم الله فى مطلع السورة تعقيبا على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم : « أأنزل عليه الذكر من بيننا » ساءلهم : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا فى الأسباب » . . ليقول لهم : إن رحمة الله لا يمسكها شىء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شىء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء . وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ، ولا حساب . . وفى هذا السياق جاءت قصة داوُد وقصة سليمان ؛ وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع .

وهما — مع هذا كله — بشر من البشر ؛ يدركهما ضعف البشر وعجز البشر ؛ فتتداركهما رحمة الله ورعايته ، وتسد ضعفهما وعجزهما ، وتقبل منهما التوبة والإنابة ، وتسدد خطاهما فى الطريق إلى الله .

وجاء مع القصتين توجيه النبى — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر على مايلقاه من المكذبين ، والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلها قصة داود وقصة سليمان : « اصبر على مايقولون واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد إنه أواب . . . الخ » . .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء . وصبر أيوب

مثل فى الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة ، وتداركه برحمة الله ، تغمره بفيضها ، وتمسح على آلامه بيدها الحانية . . وفى عرضها تأسية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللمؤمنين ، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء فى مكة ؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة ، تفيض من خزائن الله عند ما يشاء .

وهـذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة ، ويؤلف الشوط الثانى منها .

كذلك تتضمن السورة ردا على استعجالهم بالعذاب ، وقولهم : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » .. فيعرض بها ــ بعد القصص ــ مشهد من مشاهد القيامة ، يصور النعيم الذى ينتظر المتقين . والجحيم التى تنتظر المكذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية فى الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم فى الأرض ويسخرون ، ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله ، وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء . وبينما المتقون لهم حسن مآب « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب » .. فإن للطاغين لشر مآب « جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج » . . وهم يتلاعنون فى جهنم ويتخاصمون ، ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين : « وقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ؟ » فإنهم لا يجدونهم فى جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك فى الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث فى السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أمر الوحى . ويتمثل هذا الرد فى قصة آدم فى الملأ الأعلى . حيث لم يكن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حاضرا ؛ إنما هو إخبار الله له بما كان ، مما لم يشهده ــ غير آدم ــ إنسان . . وفى ثنايا القصة يتبين أن الذى أردى إبليس ، وذهب به إلى الطرد واللعنة ، كان هو حسده لآدم ــ عليه السلام ــ واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يستكثرون على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر ؛ فنى موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود اللعين !

وتختم السورة بختام هذا الشوط الرابع والأخير فيها ؛ بقول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لهم : إن ما يدعوهم إليــه لا يتــكلفه من عنده ، ولا يطالب عليه أجرا ، وإن له شأنا عظيما سوف يتجلى : « قل ما أسألــكم عليه من أجر وما أنا من المتــكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين » . .

* * *

هذه الأشواط الأربعة التى تجرى بموضوعات السورة هذا المجرى ؛ تجول بالقلب البشرى فى مصارع الغابرين ، الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين ، ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قبلهم قوم نوح وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيــكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » .

تعرض على القلب البشرى هــذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المــكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمــكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين ، فى قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك فى واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القلب فى يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لونا آخر مما يلقاه الفريقان فى دار البقاء . بعد ما لقياه فى دار الفناء . .

والجولة الأخيرة فى قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول ، الذى يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد فى ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشرى وتوقظه إلى الحق الــكامن فى بنــاء السماء والأرض . وأنه الحق الذى يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس فى الأرض . فهــذا من ذلك : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » . . وهى لفتة لها فى القرآن نظائر . وهى حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التى هى مادة القرآن المــكى الأصيلة . .

والآن نأخذ فى التفصيل . . .

* * *

« ص . والقرآن ذى الذكر . بل الذين كفروا فى عزة وشقاق . كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ولات حين مناص » . .

هذا الحرف .. « صاد » يقسم به الله سبحانه كما يقسم بالقرآن ذى الذكر . وهذا الحرف من صنعة الله تعالى . فهو موجده . موجده صوتا فى حناجر البشر ؛ وموجده حرفا من حروف الهجاء التى يتألف من جنسها التعبير القرآنى . وهى فى متناول البشر ولكن القرآن ليس فى متناولهم لأنه من عند الله . وهو متضمن صنعة الله التى لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا فى القرآن ولا فى غير القرآن . وهذا الصوت . . « صاد » . . الذى تخرجه حنجرة الإنسان ، إنما يخرج هكذا من هذه الحنجرة بقدرة الخالق المبدع ، الذى صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات . وما يملك البشر أن يصنعوا مثل هـذه الحنجرة الحية التى تخرج هـذه الأصوات ! وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة فى كل جزئية من جزئيات كيانهم القريب ! ولو عقلوها مادهشوا لوحى يوحيه الله لبشر يختاره منهم . فالوحى ليس أكثر غرابة من إبداع تكوينهم هذه الخصائص المعجزات !

« صاد . والقرآن ذى الذكر » . .

والقرآن يشتمل الذكر كما يشتمل غيره من التشريع والقصص والتهذيب .. ولكن الذكر والاتجاه إلى الله هو الأول . وهو الحقيقة الأولى فى هذا القرآن . بل إن التشريع والقصص وغيرها إن هى إلا بعض هذا الذكر . فكلها تذكر بالله وتوجه القلب إليه فى هذا القرآن . وقد يكون معنى ذى الذكر . أى المذكور المشهور . وهو وصف أصيل للقرآن :

« بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » . .

وهذا الإضراب فى التعبير يلفت النظر . فهو يبدو كأنه انقطاع عن الموضوع الأول . موضوع القسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر . هذا القسم الذى لم يتم فى ظاهر التعبير . لأن المقسم عليه لم يذكر واكتفى بالمقسم به ثم أخذ يتحدث بعده عن المشركين . وماهم فيه من استكبار ومن مشاقة . ولكن هذا الانقطاع عن القضية الأولى هو انقطاع ظاهرى ، يزيد الاهتمام بالقضية التى تليه . لقد أقسم بصاد وبالقرآن ذى الذكر . فدل على أنه أمر عظيم ، يستحق أن يقسم به الله سبحانه . ثم عرض إلى جانب هذا استكبار المشركين ومشاقتهم فى هذا القرآن . فهى قضية واحدة قبل حرف الإضراب « بل » وبعده . ولكن هذا الالتفات فى الأسلوب

يوجه النظر بشدة إلى المفارقة بين تعظيم الله ـ سبحانه ـ لهذا القرآن ، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه . وهو أمر عظيم !

وعقب على الاستكبار والمشاقة ، بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قبلهم ، ممن كذبوا مثلهم، واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاقتهم . ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ، وقد تخلى عنهم الاستكبار وأدركتهم الذلة ، وتخلوا عن الشقاق ولجأوا إلى الاستعطاف . ولكن بعد فوات الأوان :

« كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص » !

فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ؛ وأن يرجعوا عن شقاقهم . وأن يتمثلوا أنفسهم فى موقف أولئك القرون . ينادون ويستغيثون . وفى الوقت أمامهم فسحة، قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص . ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص !

* * *

يطرق قلوبهم تلك الطرقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة وهذا الشقاق .. ثم يفصل الأمر ويحكى ما هم فيه من عزة وشقاق :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب ! وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » . .

هذه هى العزة : « أأنزل عليه الذكر من بيننا » . . وذلك هو الشقاق : « أجعل الآلهة إلها واحدا ..؟ » .. « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ..! » . . « هذا ساحر كذاب » . . « إن هذا إلا اختلاق » .. الخ . الخ ..

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشرا قصة قديمة ، مكرورة معادة ، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات . وتكرر إرسال الرسل من البشر ؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » . .

وأوجب شىء وأقرب شىء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم . بشراً يدرك

كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ؟ ويحس ما يعتلج فى نفوسهم ، وما يشتجر فى كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات ...

بشراً يعيش بين البشر ـ وهو منهم ـ فتكون حياته قدوة لهم ؛ وتكون لهم فيه أسوة . وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهاً وصلة . فهم مطالبون إذن بالمنهج الذى يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لاتباعه . وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم فى واقع حياته ...

بشراً منهم . من جيلهم . ومن لسانهم . يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم . ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه ، ويتجاوبون وإياه . ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه .. أو اختلاف لغتـه . أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

ولكن أوجب شىء وأقربه إلى أن يكون ، هو الذى كان دائما موضع العجب ، ومحط الاستنكار ، وموضوع التكذيب ! ذلك أنهم كانوا لا يدركون حكمة هذا الاختيار ؛ كما كانوا يخطئون تصور طبيعة الرسالة . وبدلا من أن يروها قيادة واقعية للبشرية فى الطريق إلى الله . كانوا يتصورونها خيالية غامضة محوطة بالأسرار التى لا يصح أن تكون مفهومة هكذا وقريبة ! كانوا يريدونها مثلا خيالية طائرة لا تلمس بالأيدى، ولا تبصر فى النور ، ولا تدرك فى وضوح، ولا تعيش واقعية فى دنيا الناس! وعندئذ يستجيبون لها كأسطورة غامضة كما كانوا يستجيبون للأساطير التى تؤلف عقائدهم المتهافتة !

ولكن الله أراد للبشرية ـ وبخاصة فى الرسالة الأخيرة ـ أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية . عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة فى هذه الأرض . لا وهما ولا خيالا ولا مثلا طائرا فى سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب فى ضباب الخيالات والأوهام !

« وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » . .

قالوا كذلك استبعادا لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم . وقالوه كذلك تنفيراً

للعامة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتهويشاً على الحق الواضح فى حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه .

والحق الذى لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد ابن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يعرفونه حق المعرفة : إنه ساحر وإنه كذاب ! إنما كان هذا سلاحا من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التى يتقنها الكبراء ؛ ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذى يتمثل فى هذه العقيدة ؛ ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التى يستند إليها أولئك الكبراء !

ولقد نقلنا من قبل وننقل هنا واقعة الاتفاق بين كبراء قريش على استخدام حرب الدعاية ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والحق الذى جاء به ، لحماية أنفسهم وأوضاعهم بين الجماهير فى مكة . ولصد القبائل التى كانت تفد إلى مكة فى موسم الحج ، عن الدين الجديد وصاحبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال ابن إسحاق : إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ـ وكان ذا سن فيهم ـ وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول . ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق[1] ، وإن فرعه لجناة[2] . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه

(١) العذق : الكثير الشعب والأطراف . (٢) جناة : أى فيه ثمر يجنى .

بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس ـ حين قدموا الموسم ـ لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره ...

فذلك كان شأن الملأ من قريش فى قولهم : ساحر كذاب . وهم يعلمون أنهم يكذبون فيما يقولون . ويعرفون أنه لم يكن ـ صلى الله عليه وسلم ـ بساحر ولا كذاب !

وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد . وهى أصدق كلمة وأحقها بالاستماع: « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هـذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .

ويصور التعبير القرآنى مدى دهشتهم من هذه الحقيقة الفطرية القريبة.. «أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ » كأنه الأمر الذى لا يتصوره متصور ! « إن هذا لشىء عجاب » . . حتى البناء اللفظى « عجاب » يوحى بشدة العجب وضخامته وتضخيمه !

كما يصور طريقتهم فى مقاومة هـذه الحقيقة فى نفوس الجماهير ، وتثبيتهم على ماهم عليه من عقيدة موروثة متهافتة . وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيئاً غير ظاهرها ؛ وأنهم هم الكبراء العليمون ببواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبىء ! « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد » . . فليس هو الدين ، وليست هى العقيدة ، إنما هو شىء آخر يراد من وراء هـذه الدعوة . شىء ينبغى أن تدعه الجماهير لأربابه ، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات ! وتنصرف هى إلى عادتها الموروثة ، وآلهتها المعروفة، ولا تعنى نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها. فلتطمئن الجماهير ، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التى يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة، والبحث وراء الحقيقة ، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة ، وخطر على الكبراء ، وكشف للأباطيل التى يغرقون فيها الجماهير . وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير فى الأباطيل !

ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القريبة منهم . عقيدة أهل الكتاب . بعدما دخلت إليها الأساطير التى حرفتها عن التوحيد الخالص فيقولون :

« ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » .

وكانت عقيدة التثليث قد شاعت فى المسيحية. وأسطورة العزير قد شاعت كذلك فى اليهودية. فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هـذا وهم يقولون : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة » . . ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذى جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما يقول إذن إلا اختلاقا !

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ماعلق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التى طرأت على العقائد التى سبقته . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد فى الوقت ذاته قاعدة لاتصلح الحياة البشرية كلها فى أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها .

ويحسن ونحن نستعرض مقاومة قريش لهذه العقيدة ودهشتها وعجبها من جعل الآلهة إلها واحدا. ومقاومة المشركين قبل قريش على مدار القرون ومدار الرسالات لهذه الحقيقة كذلك. وإصرار كل رسول عليها ، وقيام كل رسالة على أساسها . والجهد الضخم الذى بذل فى إقرار هذه الحقيقة فى نفوس البشر على مدار الزمان . . يحسن أن نتوسع قليلا فى بيان قيمة هـذه الحقيقة .

إنها حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما فى الوجود . .

إن وحدة النواميس الكونية التى تتحكم فى هذا الكون الذى نراه واضحة ؛ وناطقة بأن الإرادة التى أنشأت هذه النواميس لابد أن تكون واحدة . . وحيثما نظرنا إلى هذا الكون واجهتنا هذه الحقيقة . حقيقة وحدة النواميس . وحدة تشى بوحدة الإرادة .

كل مافى هذا الكون فى حركة دائمة منتظمة . . الذرة الصغيرة وهى الوحدة الأولى لكل ما فى الكون من شيء ـ حى أو غير حى ـ فى حركة مستمرة . فهى مؤلفة من الكترونات تتحرك حول النواة المؤلفة من بروتونات . كما تدور الكواكب حول الشمس فى المجموعة الشمسية . وكما تدور المجرة المؤلفة من مجموعات شمسية ومن كتل سديمية حول نفسها . . واتجاه الدورة فى الكواكب وفى الشمس وفى المجرة اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق . عكس دورة الساعة ![1] .

---

(١) عن كتاب : مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى المدير السابق لجامعة القاهرة .

والعناصر التى تتكون منها الأرض وبقية الكواكب السيارة واحدة . وعناصر النجوم هى كذلك من عناصر الأرض. والعناصر مؤلفة من ذرات . والذرات مؤلفة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات .. كلها مؤلفة من هذه اللبنات الثلاث بلا استثناء ..

« وفى الوقت الذى ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات . يرد العلماء « القوى » إلى أصل واحد: الضوء والحرارة . الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيمية . وكل إشعاع فى الدنيا .. كلها صور متعددة لقوة واحدة . تلك القوة المغناطيسية الكهربائية . إنها جميعا تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة .

« المادة ثلاث لبنات . والقوى موجات متأصلات .

« ويأتى أينشتين وفى نظريته النسبية الخاصة ، يكافىء بين المادة والقوى ؛ ويقول : إن المادة والقوى شىء سواء . وتخرج التجارب تصدق دعواه . وخرجت تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت تسمعه الدنيا . ذلك انفلاق الذرة فى القنبلة اليودينوتية .

« المادة والقوى إذن شىء سواء »(1) .

هذه هى الوحدة فى تكوين الكون كما عرفها الإنسان أخيراً فى تجاربه المحسوسة . . وهناك الوحدة الظاهرة فى نظام الكون كما أشرنا إلى قانون الحركة الدائبة . ثم هى الحركة المنظمة المنسقة التى لا يشذ فيها شىء فى هذا الكون . ولا يضطرب فيها شىء .. توازن هذه الحركة فى جميع الكائنات بحيث لا يعطل بعضها بعضا ولا يصدم بعضها بعضا . وأقرب مثل هذه الكواكب والنجوم والمجرات الضخمة التى تسبح فى الفضاء : « وكل فى فلك يسبحون » . . والتى تشهد بأن مجريها فى هذا الفضاء ، المنظم لحركتها وأبعادها ومواقعها واحد لا يتعدد ، عارف بطبيعتها وحركتها . مقدر لهذا كله فى تصميم هذا الكون العجيب .

ونكتفى بهذه اللمحة الخاطفة فى تتبع حقيقة الوحدة التى ينطق بها نظام هذا الكون ويشهد بها كل ما فيه .

وهى حقيقة لا يستقيم أمر هذه البشرية إلا عليها . فوضوح هذه الحقيقة فى الضمير البشرى ذو أهمية بالغة فى تصور البشر للكون من حولهم ، ولموضعهم هم فى هذا الكون ، ولعلاقتهم بكل ما فيه من أشياء وأحياء . ثم فى تضورهم لله الواحد ولحقيقة ارتباطهم به ، وبما

(1) كتاب : « مع الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى مدير جامعة القاهرة السابق .

عداه ومن عداه فى هذا الوجود . . وكل ذلك ذو أهمية بالغة فى تكييف مشاعر البشر وتصورهم لكل شؤون الحياة .

والمؤمن بالله الواحد ، المدرك لمعنى هذه الوحدانية ، يكيف علاقته بربه على هذا الأساس، ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، فى موضعها الذى لا تتعداه . فلا تتوزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله ممن خلق الله !

والمؤمن بأن الله الواحد هو مصدر هـذا الوجود الواحد يتعامل مع الوجود ومن فيه وما فيه على أساس من التعارف والتعاون والألفة والمودة ، يجعل للحياة طعما وشكلا غير ما لها فى نفس من لا يؤمن بهذه الوحدة ، ولا يحسها بينه وبين كل ماحوله ومن حوله .

والمؤمن بوحدة الناموس الإلهى فى الكون يتلقى تشريعات الله له وتوجيهاته تلقيا خاصا ، لينسق بين القانون الذى يحكم حياة البشر والناموس الذى يحكم الكون كله ؛ ويؤثر قانون الله ، لأنه هو الذى ينسق بين حركة البشر وحركة الكون العام .

وعلى الجملة فإن إدراك هذه الحقيقة ضرورى لصلاح الضمير البشرى واستقامته واستنارته وتصالحه مع الكون من حوله . وتنسيق حركته مع الحركة الكونية العامة . ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه . ثم بينه وبين الكون حوله . ثم بينه وبين كل مافى الكون من أحياء ومن أشياء ! وما يتبع هـذا من تأثرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية وإنسانية عامة فى كل مجال من مجالات الحياة[1] .

ومن ثم كان هذا الحرص على إقرار عقيدة التوحيد . وكان هذا الجهد الموصول المكرور مع كل رسالة وكل رسول . وكان هذا الإصرار من الرسل ــ صلوات الله عليهم ــ على كلمة التوحيد بلا هوادة .

وفى القرآن الكريم يتضح الحرص والجهد والإصرار فى تكرار عرض قضية التوحيد ومقتضياتها فى السور المكية على وجه التخصيص وفى السور المدنية كذلك فى صور تناسب طبيعة الموضوعات التى تعالجها السور المدنية .

وهذه هى الحقيقة التى كان المشركون يعجبون ذلك العجب من إصرار محمد ــ صلى الله

(١) أرجو أن يوفق الله إلى تفصيل هـــذا كله فى كتاب : « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان » .

عليه وسلم ــ عليها ويحاورونه فيها ويداورونه ، ويعجبون الناس منه ومنها ، ويصرفونهم عنها بكل وسيلة .

* * *

وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليكون رسولا :
« أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

وما كان فى هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد . الحسد الذى يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق .

قال ابن إسحاق : وحدثنى محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهرى ، أنه حدث ، أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ؟ فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوه أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض . لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى ياأبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : ياأبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك ! قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فى بيته ، فقال : ياأبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه . .

فهو الحسد كما نرى . يقعد بأبى جهل عن الاعتراف بالحق الذى غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد قد بلغ إلى مالا مطمع فيه لطامع . وهو السر فى قولة من كانوا يقولون :

« أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

وهم الذين كانوا يقولون : « لولا أنزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . يقصدون بالقريتين مكة والطائف، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم الحاكمون المسودون؛ الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الدين ، كلما سمعوا أن نبياً جديدا قد أطل زمانه . والذين صدموا صدمة الحسد والكبر حينما اختار الله ـ على علم ـ نبيه محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفتح له من أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنها ما علم أنه يستحقه دون العالمين .

ويرد على تساؤلهم ذاك رداً تفوح منه رائحة التهكم والإنذار والتهديد :

« بل هم فى شك من ذكرى . بل لما يذوقوا عذاب » . .

إنهم يسألون : « أأنزل عليـه الذكر من بيننا ! » . . وهم فى شك من الذكر ذاته ، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ؟ وإن كانوا يمارون فى حقيقته ، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون .

ثم يضرب عن قولهم فى الذكر ، وعن شـكهم فيه ، ليستقبل بهم تهديدا بالعذاب ، « بل لما يذوقوا عذاب » . . وكأنما ليقول : إنهم يقولون مايقولون لأنهم فى منجاة بعد من العذاب ؛ فأما حين يذوقونه فلن يقولوا من هذا شيئاً ، لأنهم حينئذ سيعرفون !

ثم يعقب على استكثارهم رحمة الله لمحمد فى اختياره رسولا من بينهم ، بسؤالهم إن كانوا يملـكون خزائن رحمة الله ، حتى يتحكموا فيمن يعطون ومن يمنعون :

« أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ » . .

ويندد بسوء أدبهم مع الله ، وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد . والله يعطى من يشاء ويمنع من يريد . وهو العزيز القادر الذى لايملك أحد أن يقف لإرادته . وهو الوهاب الـكريم الذى لا ينفد عطاؤه .

وهم يستكثرون على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يختاره الله . فبأى حق وبأية صفة يوزعون عطاء الله ؟ وهم لا يملـكون خزائن رحمته ؟ !

« أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ » .

وهى دعوى لا يجرؤون على ادعائها . ومالك السماوات والأرض وما بينهما هو الذى يمنح ويمنع ، ويصطفى من يشاء ويختار . وإذ لم يكن لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فما بالهم يدخلون فى شؤون المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء ؟

وعلى سبيل التهكم والتبكيت عقب على السؤال عما إذا كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما . بأنه إن كان الأمر كذلك « فليرتقوا فى الأسباب » . . ليشرفوا على السماوات والأرض وما بينهما ، ويتحكموا فى خزائن الله ؛ ويعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون . كما هو مقتضى اعتراضهم على اختيار الله المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء !

ثم أنهى هذا الفرض التهكمى بتقرير حقيقتهم الواقعية :

« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . .

إنهم مايزيدون على أن يكونوا جندا مهزوما ملقى «هنالك» بعيدا ؛ لا يقرب من تصريف هذا الملك وتدبير تلك الخزائن . ولا شأن له فيما يجرى فى ملك الله ؛ ولا قدرة له على تغيير إرادة الله ؛ ولا قوة له على اعتراض مشيئة الله .. « جند ما » .. جند مجهول منكر هين الشأن، « مهزوم » .. كأن الهزيمة صفة لازمة له ، لاصقة به ، مركبة فى كيانه ! « من الأحزاب » .. المختلفة الاتجاهات والأهواء !

وما يبلغ أعداء الله ورسوله إلا أن يكونوا فى هـذا الموضع الذى تصوره ظلال التعبير القرآنى ، الموحية بالعجز والضعف والبعد عن دائرة التصريف والتدبير . مهما تبلغ قوتهم ، ويتطاول بطشهم ، ويتجبروا فى الأرض فترة من الزمان .

ويضرب الله الأمثال لأولئك المتجبرين على مدار القرون ؛ فإذا هم « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » :

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » . .

فهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً فى التاريخ . قوم نوح . وعاد . وفرعون صاحب الأهرام التى تقوم فى الأرض كالأوتاد . وثمود . وقوم لوط . وقوم شعيب أصحاب الأيكة ـ الغابة الملتفة ـ

« أولئك الأحزاب » ! الذين كذبوا الرسل. فماذا كان من شأنهم وهم طغاة بغاة متجبرون ؟.. « فحق عقاب » . . وكان ما كان من أمرهم . وذهبوا فلم يبق منهم غير آثار تنطق بالهزيمة والاندحار !

ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة فى التاريخ . . فأما هؤلاء فمتروكون – فى عمومهم – إلى الصيحة التى تنهى الحياة فى الأرض . قبيل يوم الحساب :

« وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » . .

هـذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة . وهى المسافة بين الحلبتين ! لأنها تجىء فى موعدها المحدد ، الذى لا يستقدم ولا يستأخر . كما قدر الله لهذه الأمة الأخيرة أن ينظرها ويمهلها ، فلا يأخذها بالدمار والهلاك كما أخذ من قبل أولئك الأحزاب .

وكان هذا رحمة بهم من الله . ولـكنهم لم يعرفوا قدر هذه الرحمة ، ولم يشكروا لله هذه المنة . فاستعجلوا جزاءهم ، وطلبوا أن يوفيهم الله حظهم ونصيبهم، قبل اليوم الذى أنظرهم إليه :

« وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . .

وعند هذا الحد يتركهم السياق . ويلتفت إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – يسليه عن حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ، واستعجالهم بالجزاء ، وتـكذيبهم بالوعيد ، وكفرهم برحمة الله . . . ويدعوه أن يذكر ما وقع للرسل قبله من ابتلاء . وما نالهم من رحمة الله بعد البلاء . .

« وَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ، وَٱهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ ٱلصِّرَاطِ * إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ

فَقَالَ : أَكْفِلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ – وَقَلِيلٌ مَا هُمْ – وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ .

« يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا . ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ، ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ .

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا

وَذِكْرَى لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

« وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ، ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ .

« وَٱذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيَارِ » . .

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ تعرض كي يذكرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويدع ما يعانيه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب وافتراء ؛ ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور .

وهذا القصص يعرض ـ في الوقت ذاته ـ آثار رحمة الله بالرسل قبله : وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام . وذلك ردا على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو ببدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ؛ وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ؛ وفيهم من سخر له الريح والشياطين.. كداود وسليمان . . فما وجه العجب في أن يختار الله محمدا الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان ؟

كذلك يصور هـذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه . فقد كانوا بشرا ـ كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر ـ وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ؛ إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتليهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى رعاية ربه له ، وحمايته وحياطته في كل خطوة يخطوها في حياته .

* * *

« اصبر على مايقولون ، واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد ، إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه

يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . .

« اصبر » . . إنها الإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل ـ عليهم صلوات الله ـ الطريق الذى يضمهم أجمعين . فكلهم سار فى هذا الطريق . كلهم عانى . وكلهم ابتلى . وكلهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعا . وطابعهم جميعا . كل حسب درجته فى سلم الأنبياء.. لقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات ؛ مفعمة بالآلام ؛ وحتى السراء كانت ابتلاء وكانت محكا للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء . وكلتاهما فى حاجة إلى الصبر والاحتمال ..

ونستعرض حياة الرسل جميعا ـ كما قصها علينا القرآن الكريم ـ فنرى الصبر كان قوامها ، وكان العنصر البارز فيها . ونرى الابتلاء والامتحان كان مادتها وماءها ..

لكأنما كانت تلك الحياة المختارة ـ بل إنها لكذلك ـ صفحات من الابتلاء والصبر معروضة للبشرية ، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام والضرورات ؛ وكيف تستعلى على كل ما تعتز به فى الأرض ؛ وتتجرد من الشهوات والمغريات ؛ وتخلص لله وتنجح فى امتحانه ، وتختاره على كل شىء سواه . . ثم لتقول للبشرية فى النهاية : هذا هو الطريق . هذا هو الطريق إلى الاستعلاء ، وإلى الارتفاع . هذا هو الطريق إلى الله .

« اصبر على ما يقولون » . . وقد قالوا : « هذا ساحر كذاب » .. وقالوا : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب » . . وقالوا : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . . وغير ذلك كثير . والله يوجه نبيه إلى الصبر على ما يقولون . ويوجهه إلى أن يعيش بقلبه مع نماذج أخرى غير هؤلاء الكفار . نماذج مستخلصة كريمة . هم إخوانه من الرسل الذين كان يذكرهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحس بالقرابة الوثيقة بينه وبينهم ؛ ويتحدث عنهم حديث الأخوة والنسب والقرابة . وهو يقول .. رحم الله أخى فلاناً .. أو أنا أولى بفلان .

« اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » ..

يذكر داود هنا بأنه ذو القوة . وبأنه أواب . . وقد جاء من قبل ذكر قوم نوح وعاد وفرعون ذى الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . وهم طغاة بغاة . كان مظهر قوتهم هو الطغيان والبغى والتكذيب . فأما داود فقد كان ذا قوة ، ولكنه كان أوابا ، يرجع إلى ربه طائعا تائبا عابدا ذاكرا . وهو القوى ذو الأيد والسلطان .

وقد مضى فى سورة البقرة بدء قصة داود ، وظهوره فى جيش طالوت ، فى بنى إسرائيل ــ من بعد موسى ــ إذ قالوا لنبى لهم: ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . فاختار لهم طالوت ملكا . ولقى بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده . وقتل داود جالوت . وكان إذ ذاك فتى . ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولى الملك أخيراً ؛ وأصبح ذا سلطان . ولكنه كان أوابا رجاعا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبا ذاكرا وصوتا رخيما ، يرجع به تراتيله التى يمجد فيها ربه . وبلغ من قوة استغراقه فى الذكر ، ومن حسن حظه فى الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير فى صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه لمولاها ومولاه :

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب » ..

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ . . الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه فى تمجيده وذكره . والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده . . لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس الجبال!

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة . وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات . حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارىء الوجود كله : أحيائه وأشيائه جميعا . وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم . فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التى تميزهم وتعزلهم فى مألوف الحياة !

وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ؛ وسخر الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله . وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

« وشددنا ملكه . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ..

فكان ملكه قويا عزيزا . وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا . وفصل الخطاب قطعه

والجزم فيه برأى لا تردد فيه . وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال فى الحكم والسلطان فى عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ؛ وكانت عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه :

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ــ وقليل ماهم ــ وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » . .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبى الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شؤون الملك، وللقضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر بالخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحا لله فى المحراب . وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

وفى ذات يوم فوجىء بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه . ففزع منهم . فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه . « قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض » . وجئنا للتقاضى أمامك « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط » . . وبدأ أحدهما فعرض خصومته : « هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة . فقال : أكفلنيها (أى اجعلها لى وفى ملكى وكفالتى) « وعزنى فى الخطاب » (أى شدد على فى القول وأغلظ) .

والقضية ــ كما عرضها أحد الخصمين ــ تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ، ولم يطلب إليه بيانا ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم : « قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيرا من الخلطاء ــ (أى الأقرباء المخالطين بعضهم لبعض) ــ ليبغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » . .

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان !

امتحان النبي الملك الذى ولاه الله أمر الناس ، ليقضى بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم . وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية فى صورة صارخة مثيرة .. ولكن القاضى عليه ألا يستثار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا !

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء :

« وظن داود أنما فتناه » . .

وهنا أدركته طبيعته .. إنه أواب .. « فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » .

« فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . . وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضا كبيرا . تتنزه عنه طبيعة النبوة . ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها . حتى الروايات التى حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا . وهى لاتصلح للنظر من الأساس . ولا تتفق مع قول الله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

والتعقيب القرآنى الذى جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ؛ ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس :

« ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . بما نسوا يوم الحساب » . .

فهى الخلافة فى الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى — فيما يختص بنبى — هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين . . مما ينتهى مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب .

ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . ورده عند أول اندفاعة . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة ! وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم ببشريتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقيلها الله ، ويأخذ بيدهم ، ويعلمهم ، ويوفقهم إلى الإنابة ، ويغفر لهم ، ويغدق عليهم ، بعد الابتلاء . .

***

وعند تقرير مبدإ الحق فى خلافة الأرض ، وفى الحكم بين الناس . . وقبل أن تمضى قصة داود إلى نهايتها فى السياق . . يرد هذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذى تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما . أصله العريق فى كيان هذا الكون كله . وهو أشمل من خلافة الأرض ، ومن الحكم بين الناس . وهو أكبر من هذه الأرض . كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا . إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة . ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة ، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » . .

وهكذا : فى هذه الآيات الثلاث ، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة . بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها . .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا ، ولم يقم على الباطل . إنما كان حقا وقام على الحق . ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق . الحق فى خلافة الأرض . والحق فى الحكم بين الخلق . والحق فى تقويم مشاعر الناس وأعمالهم ؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؛ ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار . والحق الذى جاء به الكتاب المبارك الذى أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغى أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة ، التى لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل فى بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا . . « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » . .

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه فى خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذى يقوم عليه الناموس . وإن العدل الذى يطالب به الخلفاء فى الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلى ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف . وإن الانحراف عن شريعة الله والحق فى الخلافة والعدل فى الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكونى الذى قامت عليه السماء والأرض ؛ وهو أمر عظيم إذن ، وشر كبير ، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لابد أن يتحطم فى النهاية ويزهق . فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن

سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود . . ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة ، ولعجلة الكون الجبارة الطاحنة !

وهذا ما ينبغى أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكره أولو الألباب . .

* * *

وبعد هذا التعقيب المعترض فى صلب القصة لكشف تلك الحقيقة الضخمة ، يمضى السياق يعرض نعمة الله على داود فى عقبه وولده سليمان ؛ وماوهبه الله من ألوان الإنعام والإفضال . كما يعرض فتنته وابتلاءه ورعاية الله له ، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء :

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد . إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال : إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها علىّ . فطفق مسحا بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاءحيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهى الخيل الكريمة . وعن الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان . . كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهى إما إسرائيليات منكرة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصورا يطمئن إليه قلبى ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثرا صحيحا أركن إليه فى تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح . صحيح فى ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعا . ونصه : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .. وجائز أن تكون هذه هى الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا . وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال .. أما قصة الخيل فقيل : إن سليمان ــ عليه السلام ــ استعرض خيلا له بالعشى.

ففاتته صلاة كان يصليها قبل الغروب . فقال ردوها علىّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراما لها لأنها كانت خيلا فى سبيل الله . . وكلتا الروايتين لا دليل عليها . ويصعب الجزم بشىء عنها .

ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما فى القرآن .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان ـ عليه السلام ـ فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان كما يبتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء :

« قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » . .

وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان ـ عليه السلام ـ أنه لم يرد به أثرة . إنما أراد الاختصاص الذى يتجلى فى صورة معجزة . فقد أراد به النوع . أراد به ملكا ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتى بعده . وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا معهودة فى الملك الذى يعرفه الناس .

وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المعهود ، ملكا خاصا لا يتكرر :

« فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد » . .

وتسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله ؛ لا يخرج فى طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولا شك ، تجرى بأمره وفق نواميسه ؛ فإذا يسر الله لعبد من عباده فى فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ؛ وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد ؛ فذلك أمر ليس على الله بمستبعد . ومثله يقع فى صور شتى . والله سبحانه يقول فى القرآن للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا » . . فما معنى هذا ؟ معناه أنهم إذا لم ينتهوا فستتجه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة .

وسيتم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتالهم وإخراجهم ؛ فتتم إرادتنا بهم عن طريقك. فهذا لون من توافق أمر الله — سبحانه — وأمر النبي — صلى الله عليه وسلم — وإرادة الله وأمره هما الأصيلان . وهما يتجليان فى إرادة الرسول وأمره وفق ما أراد الله . وهذا يقرب إلينا معنى تسخير الريح لأمر سليمان — عليه السلام — تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله فى توجيه هذه الرياح ، المثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال .

كذلك سخر له الشياطين لتبنى له ما يشاء ؛ وتغوص له فى البحر والأرض فى طلب ما يشاء . وأعطاه السلطة لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له وتكبيلهم بالأصفاد مقرونة أيديهم إلى أرجلهم . أو مقرنين اثنين اثنين أو أكثر فى القيود عند الاقتضاء .

ثم قيل له : إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة . تعطى من تشاء كيف تشاء . وتمسك عمن تشاء قدر ما تشاء :

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » . .

وذلك زيادة فى الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قربى فى الدنيا وحسن مآب فى الآخرة :

« وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » . .

وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم .

* * *

ثم نمضى مع قصة الابتلاء والصبر ، والإنعام بعد ذلك والإفضال . نمضى فى السياق مع قصة أيوب :

«واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » . .

وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهى تضرب مثلا للابتلاء والصبر . ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها . والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب — عليه السلام — كان كما جاء فى القرآن عبدا صالحا أوابا ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه

كان بذهاب المـال والأهل والصحة جميعا . ولـكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته ، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه . وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء. فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لأن شفاه الله ليضربنها عددا عينه ــ قيــل مئة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه :

« أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » ..

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ :

« اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب » . .

ويقول القرآن الـكريم :

« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب » ..

وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه . فرحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلائها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذى حدده . فيضربها به ضربة واحدة . تجزىء عن يمينه ، فلا يحنث فيها :

« وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث » . .

هذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ماعلمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء :

« إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب » . .

* * *

وبعد عرض هذه القصص الثلاثة بشىء من التفصيل ؛ ليذكره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويصبر على مايلاقيه . يجمل السياق الإشارة إلى مجموعة من الرسل . فى قصصهم من البلاء والصبر ، ومن الإنعام والإفضال ، ما فى قصص داود وسليمان وأيوب — عليهم السلام — ومنهم سابقون على هؤلاء معروف زمانهم . ومنهم من لا نعرف زمانه ، لأن القرآن والمصادر المؤكدة لدينا لم تحدده :

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصه ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ... » . .

وإبراهيم وإسحاق ويعقوب — وكذلك إسماعيل — كانوا قبل داود وسليمان قطعا . ولكن لانعرف أين هم من زمان أيوب . وكذلك اليسع وذو الكفل . ولم يرد عنهما فى القرآن إلا إشارات سريعة . وهناك نبى من أنبياء بنى إسرائيل اسمه بالعبرية : «إليشع» وهو اليسع بالعربية على وجه الترجيح . فأما ذو الكفل فلا نعرف عنه شيئاً إلا صفته هذه « من الأخيار » . .

ويصف الله سبحانه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بأنهم « أولى الأيدى والأبصار » . . كناية عن العمل الصالح بالأيدى والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار . وكأن من لايعمل صالحا لا يد له . ومن لا يفكر تفكيراً سليما لا عقل له أو لا نظر له !

كما يذكر من صفتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليذكروا الدار الآخرة ، ويتجردوا من كل شىء سواها : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » . . فهذه ميزتهم ورفعتهم . وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخيارا : « وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . .

وكذلك يشهد الله — سبحانه — لإسماعيل واليسع وذى الكفل أنهم من الأخيار . ويوجه خاتم أنبيائه وخير رسله — صلى الله عليه وسلم — ليذكرهم ويعيش بهم ، ويتأمل صبرهم ورحمة الله بهم . ويصبر على مايلقاه من قومه المكذبين الضالين . فالصبر هو طريق الرسالات .

وطريق الدعوات . والله لايدع عباده الصابرين حتى يعوضهم من صبرهم خيرا ورحمة وبركة واصطفاء .. وما عند الله خير . وهان كيد الكائدين وتكذيب المكذبين إلى جانب رحمة الله ورعايته وإنعامه وإفضاله . .

« هَٰذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَاتُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِنْ نَفَادٍ .

« هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

« هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ . لَامَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ * قَالُوا : بَلْ أَنْتُمْ لَامَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * قَالُوا : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ .

« وَقَالُوا : مَالَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ ٱلْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا ؟ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَارُ .

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ » ..

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله . مع الابتلاء والصبر . والرحمة والإفضال . كان هذا ذكرا لتلك الحيوات الرفيعة فى الأرض وفى هذه الدنيا . . ثم يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين ، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفى الحياة الباقية .. يتابعه فى مشهد من مشاهد القيامة . نستعير لعرضه صفحات من كتاب مشاهد القيامة فى القرآن مع تصرف قليل :

يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل فى المجموع وفى الأجزاء ، وفى السمات والهيئات : منظر « المتقين » لهم « حسن مآب » . ومنظر « الطاغين » لهم « شر مآب » . فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب . ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب . وهن مع شبابهن « قاصرات الطرف » لايتطلعن ولا يمددن بأبصارهن . وكلهن شواب أتراب . وهو متاع دائم ورزق من عند الله « ماله من نفاد » .

وأما الآخرون فلهم مهاد . ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم « فبئس المهاد » ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيء . إنه مايغسق ويسيل من أهل النار ! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب . يعبر عنها بأنها « أزواج » !

ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حى شاخص بما فيه من حوار : فهاهى ذى جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت فى الدنيا متوادة متحابة . فهى اليوم متناكرة متنابزة . كان بعضهم على لبعض فى الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم فى النعيم . كما يصنع الملأ من قريش وهم يقولون : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

هاهم أولاء يقتحمون النار فوجا بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض : « هذا فوج مقتحم معكم » .. فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب فى اندفاع وحنق : « لامرحبا بهم إنهم صالو النار » ! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! إنهم يردون : « قالوا : بل أنتم لا مرحبا بكم . أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار !» .. فلقد كنتم أنتم السبب فى هذا العذاب . وإذا دعوة فيها الحنق والضيق والانتقام : « قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار » !

ثم ماذا ؟ ثم هاهم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم فى الدنيا ، ويظنون بهم شرا ، ويسخرون من دعواهم فى النعيم . هاهم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين فى النار ، فيتساءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟ : « وقالوا : ما لنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا[1] ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟ » .. بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك فى الجنان !

---

(١) هناك قراءة لا تجعل جملة « أتخذناهم سخريا » استفهامية . ولكن إخبارية وقد اخترنا هذه القراءة لأن المعنى على أساسها أدق وأوضح . وتكون اتخذناهم سخريا تكملة للجملة قبلها ووصفا لرجالا .

ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار :

« إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ! !

فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين . الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم . وما أبأس نصيبهم الذى كانوا يستعجلون به وهم يقولون : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » !

« قُلْ : إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ .

« قلْ : هُوَ نبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

« فَسَجَدَ ٱلْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ : يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ؟ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ : فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ : رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ : فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

« قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » . .

هذا الدرس الأخير فى السورة يعود إلى تقرير القضايا التى عرضت فى مقدمتها : قضية التوحيد . والوحى . وقضية الجزاء فى الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلا على الوحى بما دار

فى الملأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال فى يوم الحساب. كما تتضمن القصة لونا من الحسد فى نفس الشيطان هو الذى أرداه وطرده من رحمة الله ؛ حينما استكبر على آدم فضل الله الذى أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتى لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتى يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم فى حبائله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاما من أبيهم آدم ، وقد كان طرده بسببه . وهى معركة معروفة الأهداف . ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحى ،وعظمة ماوراءه،مما يغفل عنه المكذبون الغافلون..

***

« قل : إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » . .

قل لأولئك المشركين ، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون : « أجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن هذا لشىء عجاب » . . قل لهم : إن هذه هى الحقيقة : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » . . وقل لهم : إنه ليس لك من الأمر ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ؛ وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار: « رب السماوات والأرض وما بينهما » .. فليس له من شريك . وليس من دونه ملجأ فى السماوات أو فى الأرض أو فيما بينهما . وهو « العزيز » القوى القادر . وهو « الغفار » الذى يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة ، ويغفر لمن يثوبون إلى حماه .

وقل لهم : إن ماجئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون . وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون :

« قل : هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون » . .

وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله فى هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله فى نظام هذا الوجود . ليس منفصلا ولا بعيدا عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضى السحيق والمستقبل البعيد .

ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشا فى مكة ، والعرب فى الجزيرة ، والجيل الذى

عاصر الدعوة فى الأرض . ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ؛ ويؤثر فى مستقبل البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها ؛ ويكيف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل فى أوانه المقدر له فى نظام هذا الكون كله ، ليؤدى دوره هذا فى الوقت الذى قدره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذى خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم . سواء فى ذلك من آمن به ومن صدّ عنه . ومن جاهد معه ومن قاومه . فى جيله وفى الأجيال التى تلته . ولم يمر بالبشرية فى تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم.

ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعد والنظم فى هذه الأرض كلها ، وفى أجيال البشرية جميعها ، مالم يكن العرب يتصورونه ولو فى الخيال !

وما كانوا يدركون فى ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ؛ ويوجه سير التاريخ ؛ ويحقق قدر الله فى مصير هذه الحياة ؛ ويؤثر فى ضمير البشرية وفى واقعها ؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالحق الكامن فى خلق السماوات والأرض وما بينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة . يؤدى دوره فى توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن فى بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره فى تاريخ البشرية وفى خط سيرها الطويل استعراضا واقعيا ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا النبأ الذين يهمهم دائما أن يصغروا من شأنه فى تكييف حياة البشر وفى تحديد خط التاريخ . . ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض فى هذه الأرض إلى آخر الزمان . .

ولقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم وأمر محمد ابن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — واختياره من بينهم ، لينزل عليه الذكر . وكانوا يحصرون همهم فى هذه الشكلية. فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جدا . وأنه أكبر منهم ومن محمد ابن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — وأن محمدا ليس إلا حاملا لهذا النبأ ومبلغا ؛ وأنه لم يبتدعه ابتداعا ؛ وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه ؛ وما كان حاضرا ما دار فى الملأ الأعلى منذ البدء إنما أخبره الله :

« ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » ..

* * *

وعند هذا يأخذ السياق فى عرض قصة البشرية ؛ ومادار فى الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء. مما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرها . وهو ما أرسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبلغه وينذر به فى آخر الزمان :

« إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » . .

وما ندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة . وما ندرى كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم فى كتاب الله . ولا حاجة بنا إلى الخوض فى شىء من هـذا الذى لا طائل وراء الخوض فيه . إنما نمضى إلى مغزى القصة ودلالتها كما يقصها القرآن .

لقد خلق الله هذا الكائن البشرى من الطين . كما أن سائر الأحياء فى الأرض خلقت من طين . فمن الطين كل عناصرها . فيما عدا سر الحياة الذى لايدرى أحد من أين جاء ولا كيف جاء . ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشرى فيما عدا ذلك السر . وفيما عدا تلك النفخة العلوية التى جعلت منه إنسانا . من الطين كل عناصر جسده . فهو من أمه الأرض . ومن عناصرها تكون . وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهى المجهول ؛ وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التى حددت خط سيره فى الحياة .

ونحن نجهل كنه هـذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فآثارها هى التى ميزت هـذا الكائن الإنسانى عن سائر الخلائق فى هـذه الأرض . ميزته بخاصية القابلية للرقى العقلى والروحى . هى التى جعلت عقله ينظر تجارب الماضى ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلى والروحى خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء فى هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع فى هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس ـ ولا أحد أفراده ـ عقليا أو روحيا . حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوى .

لقد نفخ الله من روحه فى هـذا الكائن البشرى ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة

فى الأرض ؛ وأن يتسلم مقاليد هـــذا الـكوكب فى الحدود التى قدرها له . حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات .

لقد أودعه القدرة على الارتقاء فى المعرفة . ومن يومها وهو يرتقى كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر فى استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوى فإن تيارات المعرفة فى كيانه وفى حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هـذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نـكسة فى خصائصه الإنسانية ، تهبط به فى سلم الارتقاء الحقيقى . ولو تضخمت علومه وتجاربه فى جانب من جوانب الحياة .

وما كان لهذا الـكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة . . ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الـكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الـكريمة . . وإلا فمن هو؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذى يحيا على هذا الـكوكب الأرضى مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الـكوكب الأرضى إلا تابع صغير من توابع أحد النجوم . ومن هذه النجوم ملايين الملايين فى ذلك الفضاء الذى لا يدرى إلا الله مداه . . فماذا يبلغ هــذا الإنسان لتسجد له ملائـكة الرحمان ؟ إلا بهــذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد . . من طين !

ولقد استجاب الملائـكة لأمر ربهم كما هى فطرتهم :

« فسجد الملائـكة كلهم أجمعون » . .

كيف ؟ وأين ؟ ومتى ؟ كل أولئك غيب من غيب الله . ومعرفته لا تزيد فى مغزى القصة شيئاً . هذا المغزى الذى يبرز فى تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ؛ بعد ما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم .

سجد الملائـكة امتثالا لأمر الله ، وشعورا بحكمته فيما يراه .

« إلا إبليس استكبر وكان من الـكافرين » . .

فهل كان إبليس من الملائـكة ؟ الظاهر أنه لا . لأنه لو كان من الملائـكة ما عصى . فالملائـكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . وسيجىء أنه خلق من نار . والمأثور أن الملائـكة خلق من نور . . ولـكنه كان مع الملائـكة وكان مأمورا بالسجود . ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالا لشأنه بسبب ما كان من عصيانه . إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه :

«قال : ياإبليس ما منعك أن تسجدلماخلقت بيدى ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين؟» ..

ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ والله خالق كل شىء . فلابد أن تكون هناك خصوصية فى خلق هذا الإنسان تستحق هـذا التنويه . هى خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية .

أستكبرت ؟ عن أمرى « أم كنت من العالين ؟ » الذين لا يخضعون ؟

« قال : أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين » !

إنه الحسد ينضح من هـذا الرد . والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين فى آدم ، والذى يستحق هذا التكريم . وهو الرد القبيح الذى يصدر عن الطبيعة التى تجردت من الخير كله فى هذا الموقف المشهود .

هنا صدر الأمر الإلهى العالى بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح :

« قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين » ..

ولا نملك أن نحدد عائد الضمير فى قوله : « منها » فهل هى الجنة ؟ أم هل هى رحمة الله . . هذا وذلك جائز . ولا محل للجدل الكثير . فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد . وإلى تصميم على الانتقام فى نفس إبليس :

« قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » . .

واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة فى علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التى أراد :

« قال : : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » ..

وكشف الشيطان عن هدفه الذى ينفق فيه حقده :

« قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » ..

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه . إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين . لا يستثنى إلا من ليس له عليهم سلطان . لا تطوعا منه ولكن عجزا عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ؟ والعاصم الذى يحول بينهم وبينه . إنه عبادة الله التى تخلصهم لله . هـــذا هو طوق النجاة . وحبل الحياة ! .. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره فى الردى والنجاة . فأعلن ـ سبحانه ـ إرادته . وحدد المنهج والطريق :

« قال : فالحق . والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » .

والله يقول الحق دائما . والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه فى هذه السورة فى شتى

صوره ومناسباته . فالخصم الذين تسوروا المحراب على داود يقولون له : « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط » .. والله ينادي عبده داود : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » . . ثم يعقب على هذا بالإشارة إلى الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا » . . ثم يجىء ذكر الحق على لسان القوى العزيز : « قال فالحق والحق أقول » . . فهو الحق الذى تتعدد مواضعه وصوره ، وتتحد طبيعته وكنهه . ومنه هذا الوعد الصادق :

« لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » . .

وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم . والعاقبة مكشوفة لهم فى وعد الله الصادق الواضح المبين . وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان . وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين . فأرسل إليهم المنذرين .

* * *

وفى نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلقى إليهم بالقول الأخير :

« قل : ماأسألكم عليه من أجر ؛ وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » . .

إنها الدعوة الخالصة للنجاة ، بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التى لا يطلب صاحبها أجرا . وهو الداعية السليم الفطرة ، الذى ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون. وإنه للنبأ العظيم الذى لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين . نبأه فى الأرض ـ وقد علموه بعد سنوات من هذا القول ـ ونبأه فى اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين: «لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » . .

إنه الختام الذى يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التى تعالجها . وهو الإيقاع المدوى العميق ، الموحى بضخامة ما سيكون : « ولتعلمن نبأه بعد حين » . .

تم الجزء الثالث والعشرون . ويليه الجزء الرابع والعشرون مبدوءاً بسورة الزمر[1]

---

(١) ينتهى الجزء الثالث والعشرون بالآية ٣١ من سورة الزمر ولكننا آثرنا عرض السورة كاملة فى الجزء الرابع والعشرين